

بَطُولَةٌ .. رَغْمَ الْمِحْنَةِ

« هيا نرجع الى فلسطين كي نستشهد او نتصير على الاعداء ولنذكر قوله تعالى : فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يفلج فسوف نؤتيه اجرا عظيما » .

الشهيد عبد القادر الحسيني وهو في الطريق الى القسطل
حيث استشهد في ابريل ١٩٤٨ م

« انه ليستحيل علينا ان نقذف غرناطة ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعا عن حريتنا وانتقاما لمصائب غرناطة ، وحاشا لله ان يقال ان اشراف غرناطة خافوا ان يموتوا دفاعا عنها » .
الشهيد موسى بن ابي غسان فارس غرناطة بالاندلس
عام ١٤٩١ م

« لقد فشل هجومنا الاول ولم تستطع وحدتنا اختراق تحصينات العدو ، وانسحبنا عن الارض التي خضبناها بدمائنا وكانت هجمات العرب عنيفة بحيث تداعت وحدتنا تحت وطأتها ، ثم كررنا على العدو ولكنه هزمنا في الجولة الثانية كما هزمنا في الجولة الاولى ، لقد هاجمنا يافا خمس مرات في يومين ورددنا على اعقابنا وبلغ من صلابة حماة يافا ان فكرنا في العدول عن اقتحامها واصدرنا الامر بالانسحاب ولكن الهاجاناه خالفتنا وبقيت تحارب » .

مناحم بيغن يتحدث عن دفاع عرب يافا عن مدينتهم ١٩٤٨

« يا عرب حيفا انني لن اكون مسئولا عن ذبح العرب اذا لم توقع شروط الاستسلام لليهود قبل السادسة مساء » .

الجنرال البريطاني قائد حامية حيفا يخاطب سكانها

لقد ردوا عليه بكلمة التاريخ .. لن نسلم مدينتنا

ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يدني الحقوق ولا يحق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق
شوقي

ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله
اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم .

قرآن كريم

لفصل التاسع

الحرب بين عرب فلسطين واليهود

١ - مساندة الانجليز لليهود في المعارك :

كان من الواضح انه منذ صدور قرار التقسيم والقتال يسود مختلف المناطق في فلسطين ، وكان قتالا بين عرب فلسطين الذين يعوزهم السلاح الكافي ، وبين جيوش يهودية منظمة مدربة مسلحة ، وكانت الجيوش اليهودية تنتظم في منظمات ثلاث كما جاء في تقرير لجنة التحقيق الانجلو - امريكية لسنة ١٩٤٦ (١) الهاجانا : وكانت بريطانيا تعترف بهذه كحرس للمستعمرات اليهودية ، واصبحت تبعا لذلك جيشا يهوديا مدربا ، وكانت هي القوة الحربية الرئيسية والرسمية لدى اليهود في فلسطين وتضم ٦٢ الفا من الجنود المدربين والمزودين بأحدث الاسلحة ، وكانت تخضع لقيادة واحدة ولها ثلاثة اقسام هي :

١ - سكان المدن والمستعمرات وعددهم ٤٠ الف مسلح .

ب - شرطة المستعمرات وتضم ١٦ الف شخص مدرب ومسلح ومتفرغ .

ج - البالاخ او فرقة الصاعقة وتضم ستة الاف مقاتل مدربين في فن الحرب الحديثة ومزودين بالمدفعية الخفيفة وبوسائل النقل المصفحة السريعة .

عصابة شترن : وهي من المنظمات الارهابية وتضم ثلاثمائة ارهابي مدرب ومسلح ومزود بجميع وسائل النقل .

عصابة الارغون زفاي ليومي : الارهابية التي اشتهرت بأعمال ارهابية خطيرة وتضم في حالة الطوارئ ستة الاف شخص مدرب ومسلح .

هذا بالاضافة الى قوة الشرطة اليهودية المركزية التي كانت تخضع

(١) فلسطين تاريخا وعبرة ومصرى ، ص ٢٢٤ .

للادارة البريطانية وعددها حوالي الف شخص مدرب ومسلح (٢) .

وكان قوام العرب خمسة وخمسين بينهم القائد عبد القادر الحسيني وابراهيم ابو دية وعزمي الجاعوني ونوزي القطب وكامل عريقات ، راح رجال الصاعقة اليهود المعروفين بالبلماخ يهاجمون قرية بيت سوريك ، وكان معهم اربعة مدافع رشاشة واثان من طراز برن وآخران من طراز ستن ، واكد لي من اتق بحديثه من رجال الجهاد المقدس الذين اشتركوا في هذه المعركة انه راي بأى عينه مصفحتين بريطانيتين من مصفحات قوة الطيران البريطاني وهما تقاتلان في صفوف اليهود ، وقد اصلنا المناضلين نارا حامية من مدافعها الرشاشة ، واحاطوا بالقرية والمجاهدين الذين فيها احاطة السوار بالمعصم .

وذاع الخبر ان عبد القادر وصحبه في خطر ، وانتشر رسل القرية في القرى المجاورة يستنفرون القوم ويستصرخونهم للنجدة ، فلبى هؤلاء النداء ، وانسلوا الى الميدان من كل حذب ، وبلغ عدد المنجدين الذين خفوا للنجدة الفا وبلغت حماسة الناس الى درجة لا توصف ، فرايت بأى عيني عندما كنت في سنجل وترسعا استنفر المناضلين لنجدة اخوانهم المحصورين فتى راح يتوسل الى ابيه الشيخ كي يسمح له بالذهاب الى ميدان الوغى بدلا منه ، وابى الشيخ في البدء الا ان يذهب هو ثم عاد فاستجاب لرجاء ولده ، وسلمه بندقيته وقال اذهب يا بني . . . وعين الله ترعاك . . . وكذلك قل عن اخوين كادا يتضاربان اذ ود كل منهما ان يكون هو مع الذاهبين ، وما كانا ليختلفا لو كان معهما بندقيتان . واني لاقسم غير حانث انه لم يتخلف عن القتال يومئذ سوى الضعفاء والمرضى والذين لم يجدوا دابة تحملهم او سيارة تنقلهم ، وفي هؤلاء وامثالهم نزل قوله تعالى « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه ، تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون » . وقصارى القول ما كادت شمس ذلك اليوم تجنح الى المغرب حتى كان النصر معقودا للعرب فرفع الحصار ، وارتد اليهود الى الورا ، تاركين وراءهم اربعة وثلاثين قتيلًا وتسعة وعشرين جريحًا ولم يقتل من العرب سوى رجل واحد من بني صخر ، وجرح خمسة احدهم القائد ابودية (٤) .

وما ان انتهت المعركة ، حتى قصد المجاهدون مستعمرة الخمس اليهودية معتزمين مهاجمتها ولكن رجال البوليس البريطاني ومعهم رجال من

وكان مجموع المحاربين من اليهود عند صدور قرار التقسيم لا يقل عن سبعين الف مقاتل ، وفي هذه الصورة سرى القتال من شارع الى شارع ومن حي الى حي ، وفي اغلب المرات التي اشتملت فيها الناريين الغريقين ، كتب النصر للعرب الذين كانوا يؤمنون بحقهم ويستمتتون دونه ، ولكن سرعان ما تخف دبابات الانجليز وطائراتهم لتحمي اليهود ، وتبعد العرب وتنزل بهم ضربات اليمية ، وفي اهدا لحظات تدخلها كانت تعمد الى خديعة العرب والفدر بهم . ولنسجل بعض تلك الاحداث :

في حي المونتفيوري :

تجمع المجاهدون الفلسطينيون وهاجموا الحي اليهودي المشهور في القدس « المونتفيوري » واحتلوا جزءا من هذا الحي ، ولاقوا من اليهود مقاومة شديدة اشتركت فيها نجدات عديدة من الطرفين ، وعندما تمكن المجاهدون من نسف بعض المنازل اليهودية فيه ، تقدم القائد البريطاني منذرا المجاهدين بالانسحاب خلال نصف ساعة والا استعمل القوة ضدهم لاجراهم ولم يكن بمقدور عرب فلسطين الا ان ينسحبوا (٣) وهؤلاء الانجليز انفسهم هم الذين لم يتدخلوا عندما كان اليهود في اوائل ذلك الشهر ينسفون قسما من حي الشعاعة العربي .

واحس المجاهدون بالحسرة والالام ان يحرموا من نصر كادوا يحققونه ، وان ترغمهم القوات البريطانية على الانسحاب حامية الفلول اليهودية ، والواقع ان الانجليز لم يكونوا مكتفين بارجاع العرب عن اتمام انتصارهم ، ولكنهم في عديد من المرات كانوا يقاتلون الى جانب اليهود بمصفحاتهم ورجالهم ، وكان شعب فلسطين يتنادى للقتال فتسري نداءاته الى مختلف قراه ، فيسرع للجهاد لا يربكه ولا يشنيه الا قلة السلاح .

ولنقرا معا ما سطره المؤرخ العربي عارف العارف عن معركة بيت سوريك الذي كان شاهد عيان لها :

في معركة بيت سوريك :

فيما كانت رحى المعركة دائرة في مكان قريب من مستعمرة الخمس ،

(٢) تقرير لجنة التحقيق الانجلو - امريكية ص ٣٩ - ٤١ .

وانظر ايضا : تقرير حكومة الانتداب لسنة ١٩٤٦ ج ٢ ص ٥٩٢ .

(٣) كان هذا في ١٢ فبراير (شباط) ١٩٤٨ .

(٤) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ٩١ - ٩٢ .

ذلك صادرا عن سياسة بريطانية مبيتة تفصلها أحداثها في مختلف مناطق فلسطين ، فبينما كانت المارك في القدس تشتد وتشتعل ، وكان المجاهدون الفلسطينيون يرمون الحي اليهودي بقنابل مورتير ، حتى اضطر خمسة الاف من سكان اليهود الى هجرته ، واعلنت صحف اليهود ان مائة وخمسة وثمانين منهم قد قتلوا عندما حدث ذلك ، اندفع المناضلون الفلسطينيون مقتحمين الحي اليهودي لاحتلاله ، وكان احتلال ذلك الحي يعني تفرغ هؤلاء المجاهدين للعمل في جبهة اخرى من جبهات القدس العديدة ، ولكن الانجليز الذين كانوا يرابطون في مركز البوليس ومعهم فريق من رجال الطيران البريطاني تصدوا للمجاهدين الفلسطينيين واستعملوا السلاح ضددهم ، حتى جرحوا عددا من المدنيين المناضلين .

في حي القطمون :

وعندما اشتد القتال في حي القطمون بالقدس وكاد العرب أن يحتلوا احياء يهودية تدخل الانجليز أيضا ، واستعملوا مدافع الهاون ، فقدفوا بها العرب وصدوهم الى الورا فاستشهد عربي .

٢- العرب ينسفون الاحياء اليهودية :

اصدر القائد العربي عبد القادر الحسيني امره الى رفاقه المجاهدين ان ينزلوا باليهود اكبر قدر ممكن من الخسائر ، وان يتجهوا الى احيائهم ينسفونها حيا بعد الاخر ، وتقدم عديد من الشباب المخلص ممثلا للامر ، منفذا للتعليمات ، ومن حق اولئك الفدائيين الابطال ان نفخر بهم ونقرن اسماءهم بالاحترام والتسجيل ، ففي كل اسم منهم معنى حي للتضحية والجهاد وامكانية فعالة للعمل الجدي الثوري الصحيح ، وكانوا شبابا من مختلف انحاء فلسطين بينهم سوري واحد واثنان من أبناء شحان أفريقيا (٨)

نسف شارع هاسوليل :

تمكن قسم من الفدائيين من نسف شارع هاسوليل اليهودي فحطم وانهار عديد من عماراته الضخمة ، وقتل وجرح فيه خلق كثير من اليهود ونزح العديد الاخر منهم عن منازلهم (٩) .

(٨) هم : فوزي القطب ، ابو محمد الدمر ، محمد علي الكرد ، عادل شرف ، يعقوب ابو حليمة ، ياسر شرف ، خليل دكيرك ، زيد غنيم ، جواد الجاعوني ، محمد الشرفا ، يوسف الحايك ، محمود عيسى ، نادي عيسى ، عبوده غيث ، محمود العنيني ، حلمي البرق ، محمود الكاوي ، عطا عثمان ، ناجي مصطفى ، كاظم صالح ، داود البيتوني ، عبدالله الكرد ، اديب الشامي ، عبدالقادر التونسي ، عبد الرحمن السيلوي .
(٩) جريدة الاهرام ٢ من فبراير ١٩٤٨ .

البوليس اليهودي اشتبكوا مع العرب في معركة جديدة استطاعوا ان يردوهم الى بيت سوريك العربية ، وان يحموا المستعمرة اليهودية ، وهكذا حال الانجليز بين المجاهدين وبين اتمام نصرهم في معركة بيت سوريك ، كما حالوا قبلا بينهم وبين نسف فندق عدن اليهودي بشارع بن يهودا ، بل انهم ارجعوه حين هاجموا حي المونتفيوري في القدس الجديدة ، ونصب الانجليز انفسهم حماة لليهود بقوة السلاح ، بعد ان حموهم ثلاثين عاما بقوة القوانين والمشائق ، ولكن عرب فلسطين كانوا اباة ومكافحين ، انهم لا يميلون الى الارهاب ما لم يرغموا عليه ، وعندما لم يجدوا وسيلة غيره يردون بها على ارهاب اليهود عمدوا اليه ونفذوه .

في قرية بيت صفافا :

كانت قرية بيت صفافا هادئة آمنة ، وحسب تنظيم الفلسطينيين لانفسهم كان بعض رجالها وشبابها يتولى مهمة الدفاع عنها ، وهي قرية صغيرة يسكنها الف وخمسمائة نسمة كلهم عرب مسلمون ، وتقع على تل ذي اهمية خاصة ، اذ يربط بين القدس ويافا وتل ابيب ، كما يربط بين القدس وبيت لحم والخليل (٥) .

هاجمها اليهود في اواخر عام ١٩٤٧ موزعين انفسهم على جماعتين ، ولكن القرية الصغيرة ثبتت في وجه المهاجمين وردتهم على اعقابهم ، واستمر القتال والثبات الى ان تدخلت بريطانيا ، حيث جاءت قوة بريطانية (٦) عسكرية الى القرية متظاهرة بان قصدها الحيلولة بين المقاتلين .

وتقدم قائد السرية البريطانية الكولونيل هاربر ، فاكد لصاحب دار عربية كان قد استولى عليها انه لن يسلمها لاحد سواه وانه لن يسمح لليهود بالمجيء الى ذلك المكان ، ولكن بينما كان العرب مطمئنين الى ذلك الوعد ، اذ غدر بهم ، فأخلاها سرا يوم ١٣ من فبراير (شباط) ١٩٤٨ ، وتقدم لها اليهود فنسفوها ونسفوا غيرها من المنازل التي كانت تطل على مستعمرتهم (ميكور هاييم) واستطاعوا ان يتركزوا هناك في موقع استراتيجي ويواصلوا ضرب القرية ودور المجاهدين حتى انهم رموا اكثر من سبعين قنبلة ، ولكن اهل القرية واصلوا الثبات والدفاع (٧) حتى قسمت نصفين بين اليهود والعرب في تسوية الهدنة المعروفة .

على ان تدخل الانجليز لم يقف عند قرية بيت صفافا ، ولم يكن تدخل ذلك الكولونيل هاربر وغدره بالعرب تدخلا او غدرا فرديا ، بل كان

(٥) نكبة بيت القدس ، ج ١ ص ٧٥ .

(٦) كان ذلك في السادس من فبراير (شباط) ١٩٤٨ .

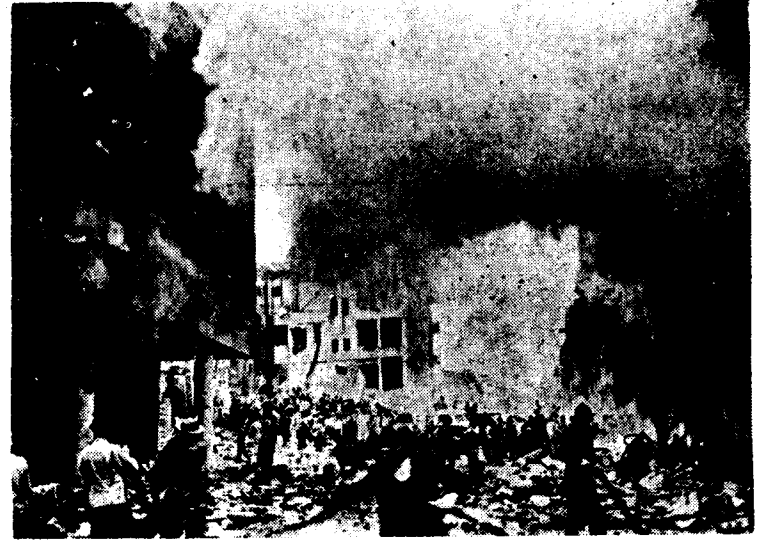
(٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ٧٦ .

.. وحي المونتفيوري ؟

وتقدم البطلان ناجي مصطفى وعبد القادر التونسي ينفذان اوامر قائد الجهاد المقدس ، بنسف حي المونتفيوري ، ويسيران بعربة مليئة بالالغام ، وكان الحي محاطا بالاسلاك الشائكة التي نصبها اليهود لحمايته ، وكانت جماعة من جنود البالمخ الفدائيين اليهود ترابط في ذلك الحي ، وهي حذرة يقظة ، بعد ان نسف الفدائيون العرب حي هاسوليل ، وتوزع الابطال الفلسطينيين يحمون الفدائيين الذين يحملان الالغام (١٠) ، واستعملوا سلاحهم حتى شاغلوا اليهود ومكنوا لحاملي الالغام ان يعملوا في ثبات وان يزبلا الاسلاك الشائكة ، وتم تفجير لغم كبير كان وزنه نصف طن ، فقتل العديد من السكان اليهود ، وجرح الكثيرون ، وتساقطت المنازل وتضررت مئات العمارات (١١) .

وشارع بن يهودا :

ولم تمض عشرة ايام حتى واصل القائد العربي عبد القادر الحسيني



لم يجد العرب ردا على الارهاب اليهودي الا المعاملة بالمثل والصورة لشارع بن يهودا حين نسفه الفدائيون العرب

(١٠) كان هؤلاء الحماة هم بهجت ابو غربية وجماعته وعادل شرف وفرحات وجماعتهما وابو احمد بركات وجماعته .

(١١) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ١٠٤ .

اعماله البطولية يعاونه اخوانه من شباب فلسطين ، فنسفوا شارع بن يهودا واستولى العرب على مصفحة من بوليس يافا ، وجاءت هذه تهادى تتبعها ثلاث سيارات تحمل كل واحدة طنا من المتفجرات ، وتركزت وسط الشارع المهم واشتعل القتيل ، فتهاوى الشارع بعماراته ، وبلغ عدد القتلى والجرحى من اليهود ما يقارب ثلاثمائة شخص ، وقدرت الخسائر بمليونين من الجنيهات (١٢) .

والوكالة اليهودية :

انهارت دار الحكومة اليهودية التي سيطرت على فلسطين منذ ان احتلها الانجليز عام ١٩١٨ . فلقد ضمن الانجليز صك الانتداب نص الاعتراف بها وبحقها في التدخل لصالح اليهود ومستقبلهم وهجرتهم . ولقد كانت الهاجانا جيش اليهود المدرب تقوم على حراستها ليل نهار ، وما كان يدور بخلد اليهود ان احدا يستطيع الوصول الى تلك الوكالة وبنائها الضخمة المحروسة المحمية ولكن لم تمض عشرون يوما على نسف شارع بن يهودا ، حتى لحقت به دار الوكالة اليهودية .

وعلى الرغم من ان الوكالة اليهودية كانت محمية بالرقباء والجنود اليهود ، فقد تمكن الفدائيون العرب منها باخلاص رافق هذا الشعب في اشد ايام محنته ، في ذات الوقت الذي كان ينظر بعيونه الى خارج الحدود ، متوقعا عونا عربيا فعلا ، فلا يصله الا القليل وغير المفيد .

كان الشاب انطون داود عربيا مسيحيا يعمل سائقا لدى القنصل الامريكي العام بالقدس مستر ميكاني ، وكان معروفا لدى الجيش الهاجاني اليهودي ، ولدى حراس دار الوكالة ، فطالما عبرها يوصل القنصل المذكور لمقابلة احد زعماء اليهود ورجالهم ، وهم بذلك مطمئنون اليه لا يخشون منه وطنية ، ولا يتوقعون حراكا ، ومن حقهم ان يطمئنوا فالصهيونية بنت الامريكان المدللة ، ولا يمكن ان يوظف هذا القنصل الامريكي معه الاثابا وثق في اخلاصه لهم ، او على الاقل تاكد من عدم اهتمامه بالاحوال العامة ، وخطا اتجه اليهود في اطمئنانهم الى الشاب العربي ، فلقد كان يدرك حقيقة الموقف ، ويتفاعل معه مخلصا وطنيا ، وكان في سبيل مصلحة عليا يعمل صامتا ، لا ترقى اليه الشبهات ، ولا تحوطه منهم الظنون ، وفي ضحى الحادي عشر من مارس (اذار) ١٩٤٨ اجتازت السيارة الامريكية الفخمة الفورد موديل ١٩٤٧ رقم ٦٦١١ يقودها انطون داود اسوار الوكالة اليهودية متحصنة بالعلم الامريكي الذي كان يرفرف عليها ، وظن الحراس ان السائق العربي الذي جاء بسيارة القنصل انما حمل رسالة للوكالة ، فدخل دون

(١٢) كارثة فلسطين ، ص ٧ .

٣ - معركة القسطل :

استطاع اليهود أن يتغلبوا على خمسين مناضلا فلسطينيا من ابناء بلدة القسطل العربية ، كانوا يتولون الدفاع عنها ، وقد هاجمهم رجال البالمخ الفدائيون من جيش الهاجانا اليهودي في الثالث من ابريل (نيسان) ١٩٤٨ ، وكان اليهود يستهدفون فتح طريق الى القدس الجديدة التي احكم العرب حصار احيائها اليهودية ، ومنعوا وصول التموين اليها ، حتى ضج اليهود في المجالات الدولية طالبين الفوث ، وتدخلت هيئة الامم قبل ان يفنى سكانها جوعا وعطشا .

وتجمع من العرب بعد سقوط القسطل حوالي الثلاثمائة مناضل ولغيف من مختلف القرى العربية تولى قيادتهم صبحي ابو جبارة ، ولغيف آخر من الجهاد المقدس يقوده كامل عريقات ، وجماعة من القطمون يقودهم ابراهيم ابو دية ، وجماعة اخرى من بيت صفافا يقودها عبدالله العمري يرافقه المحامي انور نسبية ، وآخرون من القدس يقودهم حافظ بركات ، وثلة من عين كارم يرأسهم خليل عنون ، وآخرون يرأسهم عبد الفتاح درويش (١٤) .

وابتدأت المعركة اثر هجوم رتبه العرب في ٤ ابريل (نيسان) ١٩٤٨ خسروا فيه بضعة شهداء ، وقتل من اليهود عدد كبير ولم يستطيعوا احتلال القسطل نفسها .

واستمرت المعركة طيلة اليوم الخامس ، وفي السادس منه هاجم العرب استحكامات اليهود وتحصيناتهم فأحدثوا بها خسائر مهمة ، ولكنهم لم يستطيعوا اكمال احتلال القرية ، فقد كان اليهود اكثر سلاحا واقتوى ، وفي منتصف نهار السادس كانت ذخيرة العرب قد اوشكت على النفاد ، وكان احد قواد (١٥) المعركة قد جرح مع آخرين من رفاقه ، وكان عدد آخر قد استشهد وجاءت النجدة لليهود ، واستعملت الطائرات في تزويدهم بالمؤن والمعدات ، وبعث المقاتلون العرب يطلبون العون من اخوانهم سكان القدس ورام الله ، ولكنه كان عونا ضئيلا لا يفيد « وفاقد الشيء لا يعطيه »

يقول الاستاذ عارف العارف ، انه ذهب بذاته يستنهض همة الجيش العربي الاردني المسكر في رام الله على بعد قريب من ميدان المعركة ويرجوه في الحال ان يتدخل لصالح العرب ، وأن يهاجم بعض المعسكرات اليهودية ليخفف الضغط على المناضلين ، ولكن صراخ الاستاذ عارف ذهب مع الريح ،

(١٤) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ١٦٣ .

(١٥) كان القائد الجريح هو المجاهد الفلسطيني كامل عريقات .

اعتراض . كانت المتفجرات تزن اكثر من مائتي كيلو غرام معبأة في صندوق السيارة الخلفي ، واوصلت بساعة زمنية محددة الوقت ، وانفجرت السيارة في الدقيقة التي حددها الفدائيون ، وعم القدس صوت الانفجار رهيبا مفزعا ، فدمر بيت المال اليهودي ومكتب المجلس الملي اليهودي ، وتسرب الخراب الى العديد من الاملاك اليهودية المجاورة وقتل ستة وثلاثون يهوديا بينهم عدد من كبار اليهود ورجالهم ، وجرح مئات آخرون ، وكان بين القتلى « يافة » مؤسس الكرن هايسود ، وابن زفي وشمويل دوب ، ويائيل متسي وغيرهم من كبار زعماء اليهود واقطابهم (١٣) .



انطون داود (الاول من اليمين) شاب من بيت لحم فدائي تولى نسف الوكالة اليهودية في ١١ آذار (مارس) ١٩٤٨ وعيد النور جنحو (من اليسار) شاب من القدس فدائي تولى نسف شارع هاسويل في ١ شباط (فبراير) ١٩٤٨ .

(١٣) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ١٢١ . وانظر ايضا : كارثة فلسطين ، ص ٨ .

ولم يوافق القائد العام جلوب باشا البريطاني ، ولم يثر أو يتحمس احمد صدقي الجندي قائد اللواء الاردني الرابع .

على أن هذا الجيش الذي رفض أن يساعد العرب او يخفف عنهم ثقل القتال ، لم يجد مانعا من أن يتدخل لحماية اليهود عندما نشبت معركة حامية بين العرب واليهود في حيفا في الواحد والثلاثين من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٧ والتي انتصر فيها العرب وصرعوا واحدا واربعين يهوديا ، فخفف هذا الجيش العربي الاردني وحال دون العرب واتمام نصرهم ، وانقذ مئات من اليهود كان موتهم حتما في تلك المعركة الهائلة .

ان قلة السلاح دفعت بقائد الجهاد المقدس عبد القادر الحسيني الى ان يسرع الى دمشق التي اتخذتها اللجنة العسكرية للجامعة العربية مقرا : وأن يطلب اليها تزويده بالسلاح الكافي من رشاشات ومدافع ، وكان عبد القادر يحاول ان يضع امام اذهان رئيس واعضاء تلك اللجنة تفاصيل الموقف العسكري في فلسطين ، وان اليهود يزدادون قوة على قوة كل يوم ، وانهم لا يستعملون البنادق والمسدسات فقط ، بل انهم مزودون بالرشاشات على مختلف انواعها ومدافع الهاون والموترو ومدافع الميدان ، بل انهم يملكون طائرات بلقون بها المون لقتالهم ويضربون بها المحاربين العرب ، وان العرب الفلسطينيين لا تعوزهم الشجاعة ، ولكنهم عزل من السلاح .

كان عبد القادر يحاول أن يستنهض همم تلك اللجنة ، وهو الوطني المحارب الذي يدرك عمق المأساة ويحس بالام الوطن ، ولكن لجنة الجامعة العربية كانت صورة من دولها عام ١٩٤٨ عددا ولا عدة ، وكما ولا كيف ، وفي اثناء ذلك جاءت الانباء بسقوط القسطل بيد اليهود ، فغضب غضبا شديدا ووجه كلامه الى طه باشا الهاشمي المشرف العام على جيش التحرير وعلى تلك اللجنة : يا باشا ان القسطل حصن منيع ليس من السهل استرجاعها بالبنادق الايطالية والذخائر القليلة التي بين ايدينا ، اعطني السلاح الذي طلبته منك وأنا استردها ، ولقد كانت خطتي الى الآن أن احاصر القدس والمستعمرات اليهودية وباب الواد وان امنع عنهم وصول الامدادات العسكرية والمون ، ونجحت خطتي حتى اضطر اليهود ان يمنونوا رجالهم بالقدس وفي المستعمرات بالطائرات ، اما الان فقد تطورت الحال واصبح لدى اليهود رجال وطائرات ومدافع وليس باستطاعتي ان احتل القسطل الا بالمدافع ، اعطني ما طلبت وأنا كفيل بالنصر (١٧) .

(١٧) يقول المؤرخ عارف العارف ان الكلام كان موجها الى اسماعيل صفوت ، ولكن سماحة مفتي فلسطين يقول انه كان موجها الى طه الهاشمي المشرف العام على اللجنة .

ورد الباشا العسكري للجامعة العربية « شونو عبد القادر ما اكو مدافع » (اي لا توجد مدافع) ونهض الشرباتي وزير دفاع سوريا وقال : « اذا احتل اليهود القدس فسوف نخرجهم منها او نقتلهم فيها » .

وادرك عبد القادر انه يخاطب قوما ليسوا في مستوى احدائه ، وكانت امامه خارطة رفعها ورمى بها في وجه الباشا والوزير وقال بصوت مرتفع « انتم خائنون .. انتم مجرمون ، سيسجل التاريخ انكم اضعتم فلسطين ، ساحتل القسطل وساموت انا وجميع اخواني المجاهدين » . وغادر مكان اللجنة اسدا استولى عليه الغضب وتجمعت لديه المآسي ، وكان يرافقه صديقه قاسم الريموي فقال له « هيا نرجع الى فلسطين كي نموت فيها الميتة التي وضعناها نصب اعيننا ، هيا نستشهد او نتنصر على الاعداء ، ولنذكر قوله تعالى (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما)

ولم تمض عشرون ساعة حتى كان عبد القادر قد وصل القدس فسي حماسه المتواصل ، وغضبه المستمر ، رفض ان يخضع لنصائح من طالبوه بالانتظار ، فقد صمم أن يحارب وأن يكون شجاعا يدين باستشهاده اولئك القابعين وراء مكاتب اللجنة العسكرية في دمشق ادانة لا ينساها التاريخ ، بل انه ليدين العرب كلهم في مختلف ديارهم ، اولئك الذين بخلوا بأموالهم ان تبذل سخية في سبيل تسليح الابطال ، الذين اخدوا على عاتقهم ان ينوبوا عن العرب والمسلمين في الدفاع عن فلسطين .

وذهب عبد القادر يحيط به عدد من رفاقه الابطال ووزعهم ، ابراهيم ابو دية يقود فصيلتين في القلب ، حافظ بركات يقود ميمنة الهجوم ، فريق من بدو هارون بن جازي في الميسرة ، وأبقى فرقة صغيرة يقودها صبحي ابو جبارة ، واخرى يقودها الشيخ عبد الفتاح المزرعاوي ابقاهما كاحتياطي في منطقة قريبة ، ولم يضع عبد القادر وقتا ، فقبل ان ينتصف الليل في السابع من ابريل (نيسان) ١٩٤٨ بدأ الهجوم ، وكر الابطال على استحكامات اليهود ، واتصلت الميسرة والميمنة ، ولكن سلاح اليهود القوي كان قد اصاب قائد قلب الهجوم ابراهيم ابو دية بجرح بالغ ومعه ستة عشر من مجاهديه ، واوشكت ذخائر المتقدمين على النفاد فلم يكن معهم اكثر من ثلاثة امشاط لكل بندقية وخمسة عشر مشطا لكل برن ، وتراجع المهاجمون الذين نفذت ذخائرهم ، ولكن عبد القادر تقدم مع بعض صحبه الذين جرح ثلاثة منهم وبقي احدهم مع القائد ، وتوليا مجاربة اليهود من مدفع صغير طراز ستن ومسدس عيار ٩ ملم واوشكت الذخيرة على النفاد ، وأمر القائد رفيقه

الجريح أن يتسلل عسى أن يأتيه بالذخيرة ، وذهب هذا يجر دمائه من جراحه ، ولكنه سقط مغمى عليه .

بقي عبد القادر واحاط اليهود به وبمن كان وراءه من قواته ، وعند انبثاق فجر الثامن من ابريل (نيسان) كان اهل المنطقة قد علموا ان عبد القادر وصحبه مطوقون ، فخف المجندون من كل صوب ، من الجهاد المقدس (١٨) ، ومن حراس الحرم الشريف (١٩) ، ومن شباب القدس (٢٠) ومن اهل الخليل (٢١) ، ومن قرى الوادية (٢٢) ، ومن جيش الانقاذ (٢٣) وايضا تجمع شعب فلسطين من اكثر مناطقها قربا ، كل بما يستطيع من سلاح كان مكلفا ان يدافع به عن منطقتة ، وكان اليهود اكثر عددا وعدة ، ولكن الحماس الذي اثاره نبا حصار عبد القادر انسى الشعب معنى القلة والكثرة ، وتهاوت حصون اليهود امامهم ، وانهارت مقاومتهم ، فدخلوا القسطل منتصرين ، وكانت جثث القتلى من اليهود تزيد عن الثلاثمائة والخمسين .

ووسط ذلك النصر كانت الصدمة ، كان عبد القادر الحسيني القائد الشجاع ملقى شهيدا عند اول بيت من بيوت القرية ، ولم يبق العرب في القسطل اكثر من ساعات ، فقد تجمع اليهود من كل صوب ، واستفلوا الفجيجة التي شاعت عندما استشهد القائد ، واستعانوا ببعض المصفحات البريطانية تحت مظهر جمع موتاهم ، وحين علموا ان الحامية الباقية صغيرة ، احاطوا بها وبدأوا عليها هجوما كبيرا .

يقول احد معاصري الاحداث ان الكثير من المهاجمين العرب للقسطل ذهبوا مع جثمان القائد ليشتروا في توديعه ولم يبق بها الا قرابة اربعين مقاتلا ، يقودهم بهجت ابو غريبة ومحمد عادل النجار ، وبقي عبد الحليم الشلف في صوبا بجوار القسطل ، وحين اشتد الهجوم اليهودي في الساعات الاولى من اليوم التاسع من ابريل (نيسان) استنجد المقاتلون باخوانهم فتحررت جماعة قوامها خمسة وسبعون مقاتلا بعضهم من جيش الانقاذ خليط من السوريين والعراقيين ، وبدل ان يسرعوا الخطى للمعركة قضوا ليلتهم في عين كارم ، ولم تثمر المساعي التي بذلها المحامي ابو نسيبة لاقناعهم

(١٨) كان هذا الفريق يقوده قاسم الرباوي .

(١٩) كان يقودهم الحاج عبد الحميد المدني .

(٢٠) يقودهم بهجت ابو غريبة ومحمد عادل النجار .

(٢١) يقودهم عبد الحليم الشلف .

(٢٢) يقودهم رشيد عريقات .

(٢٣) يقودهم جمال رشيد .

في الاسراع لنجدة المقاتلين سوى أنهم أرسلوا لهم ٥٠٠ مشط من العتاد وفي الصباح التاسع من ابريل (نيسان) سقطت القسطل بيد اليهود ودمروا كل ما فيها ، بيوتها ، وحصونها ومسجدها (٢٤) .

لقد رضي عبد القادر الحسيني ان يخوض معركة القسطل وهو يعلم علم اليقين انه فقير الى السلاح ، فقير الى الذخيرة ، وانه يواجه قوما قد اتموا تسليحهم وجاءتهم النجدة من كل صوب ، وانهم يملكون من المدافع وطائرات ومعدات كبيرة .

وتردد كثيرا على السنة الشعب العربي الذي كان يود ان يبقى



الشهيد عبد القادر الحسيني قائد « الجهاد المقدس » وشهيد يوم القسطل

(٢٤) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ١٦٤ .

عبد القادر لنجدة فلسطين والوطن العربي ، ولعله سيكون ركنا من أركان الجولة الثانية لو بقي ، تردد تساؤل معبر لماذا فعل عبد القادر ذلك ، ان هذا التساؤل أوضحه عبد القادر نفسه قبل استشهاده بساعات ، ألم يرم الخارطة في وجه لجنة الجامعة العسكرية بدمشق ويقول : « سيسجل التاريخ انكم اضعتم فلسطين ، ساحتل القسطل ، وساموت انا وجميع اخواني المجاهدين (٢٥) وكما يفعل الابطال الذين يؤمنون بالشعب كأسرة ، وبالاسرة كجزء من وطن عزيز ترك عبد القادر خلفه بنتا وثلاثة اطفال وزوجة بارة شاركته الجهاد و قدمت معه وبعده كل جهد لاجبايه المقاتلين .

ما اشبه الفارسيين في القسطل وغرناطة :

ان تاريخ العرب والمسلمين يكرر على دوامه صورة البطولة في افراده بين الحين والحين ، وكان ممكنا لي ان اشبه عبد القادر الحسيني بيوسف العظمة عندما أكد ان معركة ميسلون غير مكسوبة ، وحين صمم قومه على خوضها ، خاضها وكان اول شهدائها ، وكان ممكنا لي ان اشبه عبد القادر بعمر المختار شيخ شهداء ليبيا الذي استمر يقاتل مع رفاقه حتى اسر وشنق ، ولم يكن هناك امل في نصره على قوات الاحتلال الابطالي الذي جاء بجهده الكبير وشأنه الخطير ، وكان ممكنا لي ان اشبه عبد القادر بيوسف بورجيل الذي تولى القيادة في وطني ليبيا بعد عمر المختار ، وحين ايقن ان الاعداء قد عزلوا المجاهدين ، ورحلوا القبائل الى المعتقلات ، واقاموا الاسلاك الشائكة مع الشقيقة مصر ، وحين جاع رفاقه وتساقطوا هلكى امر البقية الباقية ان تهاجر الى الكنانة ، وحين وصلت وجدت كتابه يقول انه لا يليق بي مدفن الا داخل هذا الوطن ولم يبق في عمري بقية لانتظار و صدر البلاغ الابطالي يقول ان الملازم برنديزي تقدم بعد معركة مع الثوار فوجد يوسف بورجيل قتيلا مع ثلاثة من رفاقه ولا تزال البنادق حامية في ايديهم (٢٦) .

كان ممكنا لي ان اشبه عبد القادر بأحد هؤلاء الابطال ، ولكن الشبه يختلف جدا ،

لان عبد القادر لم يكن معه الا اولئك المخلصون من شعب فلسطين وهم عزل من السلاح ضعاف من التدريب ، لا تقويهم الا روح الايمان ، اما

(٢٥) لقد نقل عبد القادر وعده واحتل القسطل ، ودفع نفسه لله وللوطن ، يقول الاستاذ عارف العارف (انه أراد ان يلاتي ربه في ميدان الوغى وفيه لاقاه) .
(٢٦) راجع بحثنا عن جهاد ليبيا ، مجلة العربي ، يناير (كانون الثاني) ١٩٦٥ .

القاعدة التي يعود اليها في العواصم العربية وفي اللجنة العسكرية للجامعة العربية فقد كانت قاعدة لهما الوهن ، وعمها التراخي ، وتكاد تكون مؤمنة بالهزيمة ، راضية بالنكبة ، بل لقد كان البعض يعمل لها ويسمى اليها .

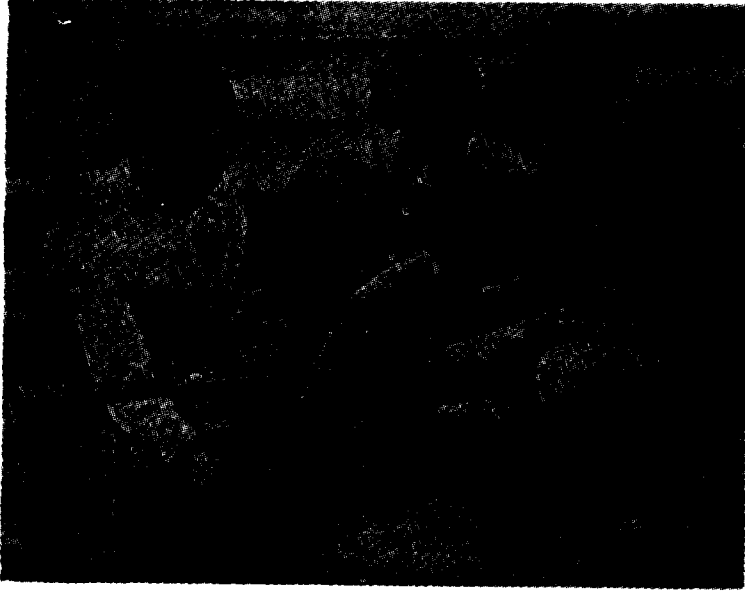
انني لاشعر مع اختلاف الزمان والظروف والوقائع ان ابا موسى عبد القادر الحسيني اكثر شبها بفارس غرناطة موسى بن ابي الفسان ، يوم ان تقرر خضوعها للاسبان ، وهانت الكرامة لدى حكامها ، ذلك انه حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير بغرناطة الاندلس ليقعوا عهد التسليم لفرديناند وايزابيللا ملك الاسبان وملكتهم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب وعلى امتهم بالفناء والمحو ، لبث موسى بن ابي الفسان وحده صامتا عابسا وقال : « اتركوا العويل للنساء والاطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لارسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء ، واني لارى روح الشعب قد خبت ، حتى ليستحيل علينا ان ننقذ غرناطة ، ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعا عن حريتنا ، وانتقاما لمصاب غرناطة ، وسوف تحتضن امناء الفبراء ابناءها احرارا من اغلال السفاح وعسفه ، ولئن لم يظفر احدنا بقبر يستر رفاته ، فانه لن يقدم سماء تغطيه ، وحاشا لله ان يقال ان اشرف غرناطة خافوا ان يموتوا دفاعا عنها .

وصمت موسى ، وساد المجتمعين سكوت الموت وسرح الخليفة ابو عبدالله البصر ، فاذا اليأس مائل في تلك الوجوه التي افضناها الالم ، عندئذ صاح : « الله اكبر ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله ، انا لله ، لقد كتب علي ان اكون شقيا ، وان يذهب الملك على يدي » وعندما رأى موسى ان الجماعة قد اخذت فعلا في توقيع صك التسليم نهض مغضبا وصاح : « لا تخدعوا انفسكم ، ولا تظنوا ان الاعداء سيفون بعهدهم ، ان الموت اقل ما نخشى فاماننا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نساءنا وبناتنا ، واماننا الجور الفاحش والتعصب الوحشي ، والسياط والاغلال ، واماننا السجون والانطاع والمجارف هذا ما سوف تراه تلك النفوس التي تخشى الموت ، اما انا فوالله لن اشهدة ثم غادر المجلس واخرق بهو الاسود عابسا حزينا ، وذهب الى داره .

ويذكر مؤرخ اسباني « انه خرج مدججا بالسلاح من راسه الى قدمه ، واخرق شوارع غرناطة على ظهر جواده حتى غادرها ، وكان مغلقا خوذته شاهرا رمحه ، وكان جواده غارقا مثله في رداء من الصلب ، وما ان رأى الفرسان الاسبان حتى وثب الى وسطهم وطعن احدهم برمحه وانتزعه من سرجه فلقاه الى الارض ، ثم انقض على الباقيين يوالي فيهم طعنا وكانت ضرباته نائرة وقاتلة ، وكأنه لم يشعر بما ائخنه من جراح ، ولبث يبطنش

بشهادة جامعة هي وكر استعمار وتبشير ، وقاعدة لاعداء العرب ، ثم رفع الشهادة التي سلمت له قبل هنيهة فمزقها امام الجميع (٢٨) .

وعبد القادر كان بطلا في ثورة ١٩٣٦ وجرح في موقعة قرية الخضر واسره الانجليز فنقل الى مستشفى القدس ، وكان قائدا مقاتلا في ثورة ١٩٢٨ وحين حوصر في معركة بني النعيم قاتل حتى جرح جرحا خطيرا وتركه الجيش البريطاني بين الشهداء فحملة رفاقه الى مغارة قريبة من ميدان المعركة ثم اخذ في الصباح التالي وقطع المجاهدون الاسلاك التليفونية بمستشفى الخليل ومنعوا اتصاله بالخارج وارغموا الدكتور البريطاني على علاجه ، ثم اخذوه على ظهر بعير حتى دمشق حيث تم له العلاج ، واشترك في ثورة العراق عام ١٩٤١ وكان قد درس الشؤون العسكرية ، ثم لجأ الى ايران وحين منع رفاقه من دخولها امتنع عن دخولها الا بهم وعاد ماشيا من كرمشاه الى بغداد مسافة الف كيلو متر قضاها في ٢٥ يوما (٢٩) .



صورة تاريخية لابناء الشهيد عبدالقادر الحسيني في طفولتهم عام ١٩٥٠ واثنان منهم الان هما فيصل وغازي رهائن في سجون اسرائيل لانهما فدائيان من منظمة الفتح

(٢٨) مجلة فلسطين : الهيئة العربية العليا لفلسطين ، العدد ٢٦ ، اول ابريل (نيسان) ١٩٦٣
(٢٩) المصدر السابق .

بالفرسان حتى افنى معظمهم ، غير انه اصيب في النهاية بجرح خطير ثم سقط جواده من تحته اثر طعنة اخرى فسقط الى الارض ، ولكنه رجع على ركبته واستل خنجرا واخذ يناضل عن نفسه ، فلما راي ان قواه قد خارت ، ولم يرد ان يقع اسيرا لدى اعدائه ، ارتد الى الوراء بوثبة اخيرة والقي بنفسه الى مياه النهر ، فابتلعت له فورده ودفعه سلاحه الثقيل الى الاعماق (٢٧) .

ما اشبه ذلك المجلس المتخاذل في غرناطة بمجلس قادسية دمشق الذي ضن بالسلاح على عبد القادر وهو يعرف ان المعركة بلا سلاح هزيمة مقررة . بل ما اشبه اولئك الجالسين في غرناطة وهم يقولون « لا راد لقضاء الله ولا مفر من التسليم » ، بالجالسين في قادسية دمشق عام ١٩٤٨ وهم يقولون : « شنو عبد القادر ماكو سلاح ، ماكو مدافع » .

وما اشبه موسى ابي الفسان وهو يقول لذلك المجلس : ان لم يظفر احدنا بقبر يستر رفاته فانه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله ان يقال ان اشرف غرناطة خافوا ان يموتوا دفاعا عنها « ما اشبهه بابي موسى عبد القادر الحسيني وهو يخاطب تلك اللجنة في قادسية دمشق قائلا : سيكتب التاريخ انكم اضعتم فلسطين ، اما انا فسأحتل القسطل وسأموت في سبيل الله . والتاريخ يعيد نفسه ، وما اشبه بعيدهم الدابر .. بقريينا الغابر .

وفي مساء الخميس ٨ ابريل (نيسان) ١٩٤٨ ، استشهد عبد القادر الحسيني ، وفي ظهر الجمعة ٩ ابريل (نيسان) صلي عليه في المسجد الاقصى المبارك ، ودفن في ثالث حرم مقدس في الاسلام .

من هو عبد القادر ؟

ان عبد القادر الذي استشهد في ابريل (نيسان) عام ١٩٤٨ لم يكن شخصا عاديا ، فهو منذ شبابه انسان ناثر وعربي مجاهد ، كان طالبا في الجامعة الامريكية بالقاهرة ، وكان الى جانب اهتمامه بالتخرج في قسم الصحافة والتاريخ ، كان يراقب برامج الجامعة ويهتم باهدافها ، ويوم اقيم حفل التخرج وسلم الشهادة وحن وقت كلمته ، خاطب اولئك الجالسين من كبار الامريكيين ورجال مصر ، خاطبهم انه لا يشرف بشهادة من جامعة القوم الذين يباركون الصهيونية ويحمونها ، ولا يسعده ان يفرح

(٢٧) محمد عبدالله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، مطبعة القاهرة
١٩٥٨ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٨ .



الى اليمين الشهيد ابراهيم ابو دية
مقعدا بسبب اصابته في معركة
رامات راحيل

الحركة بقية حياته حتى توفي في لبنان مهاجرا متأثرا بجراح البطولات .
وكان حافظ بركات شقيقا لعبد الحفيظ بركات الذي استشهد بالخليل
والى اخوه على نفسه ان يستمر جهاده ، فكان من الابطال الذين خاضوا
معارك القدس وقادوا جوانب منها ، جرح في الحي اليهودي بالقدس القديمة
وقلعت عينه اليسرى عند باب الخليل بعد استئناف القتال قبيل الهدنة
الثانية وكان في عام ١٩٥١ لا يعي الاسماء والارقام بسبب اصابته في الدماغ
في معركة الخليل .

على ان قواد الثورات في فلسطين كانوا الى جانب القيادة يتولسون
المساهمة في المعركة كلما نشب القتال ولهذا نجدهم يتساقطون شهداء في
مختلف المناطق سواء في ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ او ثورة ١٩٤٧/٤٨ .

فذلك سعيد العاص كان قائدا وشهيدا في منطقة بيت لحم .
وذلك الشيخ عبد الحفيظ ابو الفيلات قائدا وشهيدا في منطقة
الخليل .

وذلك الشيخ حسن سلامة كان قائدا وشهيدا في اللد والرملة .
وذلك خليل ابو لبن كان قائدا وشهيدا في منطقة يافا .
وذلك عبد الرحيم الحاج محمد كان قائدا وشهيدا في منطقة طولكرم
وذلك عارف عبد الرزاق كان قائدا وشهيدا في منطقة الطيبة .

وذلك الشيخ يوسف ابو درة كان قائدا وشهيدا في منطقة حيفا .
وذلك محمد الصالح ابو خالد كان قائدا وشهيدا في منطقة السيلة .
وذلك سرور برهم كان قائدا وشهيدا لحيفا .

وذلك الشيخ فرحان السعدي كان قائدا وشهيدا في منطقة جنين .
وذلك عبدالله الاصبح كان قائدا وشهيدا في منطقة صفد .

وحين اعلن التقسيم ، جاء الى مصر وابندا يشتري السلاح ويدرب
الشباب ، وانشأ مخبأ خاصا للسلاح في احدى ضواحي القاهرة ، واستعان
بالوطنيين الضباط من مصر وسوريا لتحديد اهداف المجاهدين في فلسطين
ثم عينه المفتي قائدا لفرق الجهاد المقدس فدخل فلسطين وحالفا
النصر في جميع المعارك التي خاضها (٣٠) ، ومنها معارك القدس وبيت
سوريك وبيت محير وقلندية وشعفاط وباب الواد وبرك سليمان وصوريف
ورام الله وغيرها .

واستشهد عبد القادر عن زوجة كريمة برت للجهاد على الدوام ورعت
ابناءه الثلاثة موسى وفصيل وغازي الذين نموا في بيت للجهاد عريق .

واخيرا ، ان عبد القادر الحسيني هو ابن زعيم فلسطين الكبير موسى
كاظم باشا الحسيني الذي لم يمنعه سنه الكبير من الجهاد وقيادة المظاهرات
ضد الانجليز ، حتى ضربه الجند في المظاهرة الكبيرة بيافا ، وتوفي متأثرا
بجراحه بعد ايام ، وكان ابنه عبد القادر احد جرحى تلك المظاهرة التي
خرجت لتنادي بسقوط الصهيونية وسقوط بريطانيا التي حمت الصهيونية
وفرضتها على فلسطين تلك المظاهرات التي نهت العرب بخطر هجرة
اليهود ووجوب صدها قبل ان يستفحل الخطر .

عبد القادر صورة مكررة للقواد الفلسطينيين :

واذا تحدثنا هنا عن الشهيد عبد القادر الحسيني ، فلا يعني هذا انه
كان صورة فريدة في جهاد فلسطين ، فان شهداءها لم يحصوا بعد ، ولكننا
خصصنا بهذا الفصل لعلاقته بتلك اللجنة العسكرية التي كانت تفتح في
دمشق باسم الجامعة العربية ، ولان استشهاده رافق الصورة المحزنة من قلة
السلاح ونفاد العتاد .

على ان الثورات الفلسطينية المختلفة شهدت مصارع عديد من الابطال
الذين كانوا يقودون مناطقها ومن لم يستشهد منهم عاش بعدها قليلا او
كثيرا يحمل في جسمه اوسمة المجد من جراح وقروح .

كان ابراهيم ابو دية رفيقا لعبد القادر الحسيني في منطقة القدس ،
وفي معركة القسطل ، وقد جرح في معارك عديدة ، ثم جرح يوم الهجوم
على القسطل ، ثم اصيب بجرح خطر في معركة رامات راحيل اقعده عن

(٣٠) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ، ص ١٦٧ .



هذا المنظر ليس في ستالينجراد وحرب شوارعها ، انها يافا العربية وقد قاومت الانتداب والتهويد فهدمت بريطانيا احياءها العربية ١٩٢٧/١٩٢٨

العالية الثانية ، ومرت يافا من تاريخ ابتداء القتال الى تاريخ انهيار المقاومة العربية فيها بمرحلتين مهمتين لا يمكن ونحن نُؤرخ في صدق واعزاز جهاد الشعب الفلسطيني الا ان نسجل مجملهما في وضوح وامانة وابلاغ .

كانت المرحلة الاولى هي التي بدأت منذ اوائل ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٧ الى اواسط فبراير (شباط) ١٩٤٨ وهي المرحلة التي تولاهها سكان المدينة وبعض المقاتلين الفلسطينيين .

اما المرحلة الثانية فتبدأ من دخول جماعات جيش الانقاذ في اواسط فبراير (شباط) من ذلك العام ، فأشترك قسم من هذا الجيش مع سكان المدينة في مهاجمة اليهود .

ولناخذ اول خير نشر في الرابع من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٧ لنجده يشير الى وقوع معركة شديدة بين العرب واليهود في مناطق الحدود بين يافا وتل أبيب ، استخدم خلالها الفريقان الرصاص والقنابل اليدوية ، واستمرت المعركة عدة ساعات ، قتل وجرح خلالها من العرب تسعة وعشرون ، ولم تعرف خسائر اليهود بالتفصيل ، غير أنه علم أن واحدا من كبار ضباط الهاجانا « جيش الدفاع اليهودي » يسمى « موسى نيومان » كان بين قتلاهم .

والعديد غير هؤلاء ممن لم نصل الى اسمائهم او مناطقهم ، والى جانب هؤلاء كان هناك عشرات الالوف من الشهداء ، وكان بينهم عدد كبير من رجالات فلسطين واعيانها ، وشبابها المثقف .

صراع مرير ومعارك فاصلة :

وهكذا لا يبدأ جزء من . . أرض فلسطين طوال هذه الحقبة ، فيبنماتشتمل النار في اللد والرملة يدور القتال عنيفا في جنوبي فلسطين وفي شمالها ، وتتعدد الاحداث تعددا سجلته وكالات الانباء العالمية ، مما لا يتسع المقام لنشره هنا لتشابه احداثه وتكرار امكانه ، تشابها وتكرارا يحملان صورة صادقة لمواصلة شعب فلسطين جهاده ، حتى بعد ان تولت جيوش الدول العربية زمام المعركة ، ودخلت فلسطين في منتصف مايو (ايار) ١٩٤٨ .

واذا كنا لا نرغب في تكرار برقيات تلك الايام المليئة بالخطيرة ، فاننا لا نستطيع تجاهل ما دار في المدن العربية التاريخية مثل يافا والناصرية وحيفا وعكا .

٤ - معركة يافا :

كانت يافا في اواخر عام ١٩٤٧ مدينة عربية كبيرة وجميلة ، ذات ميناء مزدهر على ساحل البحر المتوسط ، عرفت بنشاطها التجاري والثقافي ، وانها مركز من مراكز النقل العربية في المنطقة ، ومن اغنى مدن فلسطين واشهرها بتجارة البرتقال .

وقد انشأ اليهود حيا في يافا سموه تل أبيب ، لم يتمكنوا من توسيعه في العهد العثماني ، وبقي صغيرا هزيبا حتى جاء الانجليز فنما وازدهر ، وبدأ هذا التل يأخذ شكل المدينة ، وبعد ان كان يضم مائة وخمسين منزلا في عام ١٩١٤ أصبح يضم ٢٠٠٠ منزل عام ١٩٢٢ تحت حماية بريطانيا وبرامجها ، وما جاء عام ١٩٤٧ حتى كانت تل أبيب تضم ٢٣ الف منزل ومائتي الف ساكن وبذل اليهود جهودهم ، فأستولوا على كثير من الاراضي التي تحد يافا من اغلب جهاتها فأنشأوا مستعمراتهم ببيت فيجان وهاتيكا وريشون ولوزيون وميكافا اسرائيل .

وحين أعلن قرار التقسيم وتنادى العرب ، كان السلاح مشكلة المشكلات ، فتحت وطأة القانون الصارم على من يحوز سلاحا من العرب ، لم يكن بها الا عدد قليل من البنادق الايطالية سرب لها من مصر بعد الحرب

وأعلن انه بينما يستمر القتال تلتهم الحرائق المنازل والمتاجر اليهودية المتاخمة لحي المنشية العربي في يافا ، ويستمر القتال في السابع والثامن من ديسمبر (كانون الاول) ويعلم ان قتلى هذه الايام بلغوا ٤١ شخصا منهم ٢٨ يهوديا وان ١٥٠ جرحوا ، ويعلم ايضا ان العرب قاموا بهجوم في ساعات الصباح الاولى بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية على حي « جيفاتح موسى » اليهودي ، واصيب الفريقان بخسائر في الارواح (٣١) .

ويستمر تبادل اطلاق النار متقطعا عند الحدود بين يافا وتل ابيب ، وبديع رجال الهاجانا انهم نسفوا دارا للقناصة العرب في ضواحي يافا (٣٢) .

وكان المجاهدون قد تمكنوا من التسلل الى ضواحي تل ابيب ، واشعلوا النار في عدد من دورها ، ودخلوا ميناءها بعد معركة حامية عند ضواحيها ، وفرت النساء والاطفال اليهود في سيارات نقل ، واطلق المحاربون اليهود اشارات ضوئية في سماء تل ابيب يطلبون نجدات الهاجانا ، وهاجم المجاهدون العرب في التاسع من ديسمبر (كانون الاول) مستعمرة هاتكفا اليهودية المتاخمة لتل ابيب ، ولم يتمكن اليهود المدافعون عنها من الثبات على الرغم من تلقيهم نجدات كبيرة وبعد معركة حامية انسحبوا الى تل ابيب ، بينما تقدم العرب الى قلب المستعمرة حيث هدموا عددا من منازلها واشعلوا فيها النيران ، واعلنت الهاجانا نفسها انها اضطرت الى الانسحاب تحت وطأة الهجوم العربي(٣٣) .

وتستمر المصادمات اليومية ، وارتكب اليهود احدى جرائمهم الارهابية فدخلوا يافا في سيارة شحن تصحبها سيارة صغيرة مجتازين شوارع المدينة الهامة ، وكانت السيارة الكبيرة مليئة بالقنابل الزمنية المغطاة بالبرتقال ودمر انفجارها بنايات كثيرة ، وقدّرت خسائر العرب بثمانية وعشرين بين شهيد وجريح ، ثم استشهد اربعة من العرب وجرح عشرة آخرون عندما صد المجاهدون هجوما يهوديا على احد الأحياء بيافا .

واستطاع العرب وهم يواصلون المعارك في منطقة الحدود بين يافا وتل ابيب ان يتوغلوا في منطقة تل ابيب ، بعد ان دمرنا جزءا من استحكاماتها ، وبينما تستمر معركة كبيرة في منطقتي الشيخ مراد وأبو كبير قرب يافا ، عمد الجيش البريطاني الى نسف مركز عربي في تلك المنطقة ،

- (٣١) جريدة الاهرام العدد ٤ و ٩ من ديسمبر ١٩٤٧ .
(٣٢) نكبة بيت القدس ، ج ١ ص ٢٢٢ .
(٣٣) جريدة الاهرام العدد ٩ و ١٠ من ديسمبر ١٩٤٧ .

وانفجر لغم يهودي بحي المنشية في يافا فأحدث اضرارا في المنازل(٣٤) .

وشن اليهود هجوما عنيفا على يافا استغرق خمس ساعات وبلغ مجموع قذائف المدافع نحو ثلاثمائة قذيفة ، وقدّرت قوات اليهود المهاجمين بخمسمائة مقاتل جاءوا زاحفين من ثلاث جهات(٣٥) . ثم هاجم عرب يافا مدينة تل ابيب اليهودية واطلقوا القنابل عليها ، واشعلوا بها النيران . ولم يمض يومان حتى اطلق اليهود قنابل مدافعهم على يافا في صباح مبكر حتى بلغت مقدوفاتهم مائة قذيفة مركزة فأحدثت خسائر وحرائق ، وأصر اليهود على احتلال يافا ، عملا على تحطيم روح المقاومة لدى العرب فشنوا هجوما قويا حيث قابلهم المجاهدون بدفاع قوي ، ولكنهم احتلوا نقطة بوليس المنشية ومحطة السكة الحديدية ، وكر المجاهدون العرب عليهم في اليوم الثاني فدحروهم وحرروا المناطق المذكورة .

ودار القتال في يافا من شارع الى شارع ، ومن ركن الى ركن ، وتجدد هجوم اليهود بقوات كبيرة وبمدافع قوية ، واستولوا على بعض المناطق في يافا ، ويقف شعب يافا يدافع عنها في عزم وتصميم ، وتعلن القيادة البريطانية رسميا « ان اليهود ارتدوا عن المدينة بفعل الدفاع العربي وانزل العرب خسائر فادحة باليهود الذين وصلوا اطلاق نيرانهم على يافا اربعا وعشرين ساعة متواصلة » ودفع العرب في ذلك اليوم ستة وعشرين شهيدا وتسعين جريحا .

وبينما يعلن رسميا ان العرب استردوا ما كان اليهود استولوا عليه في الليلة الماضية(٣٦) وأن القتال استمر من شارع الى شارع ، يعلن ايضا ان اليهود الذين لم يستطيعوا حتى الآن اخضاع يافا برغم ما بذلوا من جهود وضحايا ، انجهوا الى القرى المحيطة بها يخلونها ويتمون حصار قرية سلمة التي كانت تهدد جنوب تل ابيب .

هكذا كانت وكالات الانباء تذيب انباء يافا على العالم ، وفيها استمرار للقتال في كل ساعة وحين ، وفيها تصميم على عدم الاستسلام لليهود الذين قوّاهم الانجليز ، وأمدّوهم بالعتاد والسلاح .

- (٣٤) جريدة الاهرام ١٦ من فبراير ١٩٤٨ .
(٣٥) جريدة الاهرام ١٥ من مارس ١٩٤٨ .
(٣٦) جريدة الاهرام . اعداد : ١ و ٦ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٩ و ٣٠ ابريل ١٩٤٨

وإذا كنا اشرفنا في اول البحث عن يافا ان مدينة تل ابيب لم تكن الا حيا من احيائها ، فان ذلك يحملنا الى تصور القتال بين تل ابيب ويافا ، وانه لن يكون الا قتالا عصيبا ومن مواقع قريبة استعملت فيه المدافع والبنادق والمواجهة القريبة وصراع الشوارع والميادين .

ولكي يستطيع سكان يافا وعددهم يزيد قليلا عن ستين الف عربي بين رجل وامرأة وطفل مواجهة حالة الحرب التفت يافا سبع لجان : لجنة اقتصادية : تشرف على اسواقها وتمنع التلاعب وتوفر الخبز للشعب .

لجنة دفاعية : تحصن خطوط الدفاع وتزود المجاهدين بالسلاح .

ثلاث لجان : للصحة والقرى والرخص وكلها تخدم القتال وترتبط الصلات بالقرى وتكافح الأوبئة الناشئة عن القتال .

لجنة دفاعية : تحصن خطوط الدفاع وتزود المجاهدين بالسلاح . تصفح السيارات للقتال .

لجنة السلاح والألغام : وهي التي تضع الألغام وتصلح السلاح وتحاول صنع انواع من السلاح المحلي (٣٧) .

انه لوضع مشرف ليافا العربية از تسلك هذا التنظيم المحلي وتضع اساستهم فيها بالاقتصاد وسط قصف المدافع وتحصن دفاعها ضد اليهود ، وتقوي من وسائل دفاعها وتصنع السلاح والألغام ، ويزداد هذا الوضع اشراقا لدينا حين نعلم ان عديدا من الذين عملوا في لجنة السلاح والألغام استشهدوا أو أصيبوا في أثناء الأعداد ، وهذا هو المهندس الكيماوي سليم دمياطي أصيب وجهه في انفجار لغم ، وذلك فيصل الظاهر الذي خلف المهندس الكيماوي استشهد وسط أحداث يافا ، وغيرهما عديدون كثيرون .

وعمد اهل يافا الى تنظيم احوالهم ماليا ، فأخذوا من بيت المال التابع للهيئة العربية العليا ما يروونه كافيا لبداية النضال ، ثم فرضوا على الأهلين ضرائب محلية على البنزين والجمرك والسفر ، وأطعموا بذلك الجائعين وسلحوا المناضلين وأمنوا الجرحى وأغاثوا عائلات الشهداء الذين يتساقطون كل يوم ، وحين سنحت لهم فرصة الحصول على سلاح مفيد اضطر عشرة من أبنائها الى الاستدانة من البنك العربي ليدفعوا الى البائع

(٢٧) نكبة بيت القدس ، ج ١ ص ٢٢٩ .

عشرة آلاف جنيه ثمنا لخمسمائة صندوق من عتاد البنادق(٣٨) :

وأتت اللجنة تجنيد ٥٤٠ مقاتلا ، منهم ٣٧٥ في مراكز ثابتة و ١٦٥ قوات متحركة ، ولكن السلاح لم يكن يزيد على ٢٨٤ قطعة كما أوردنا قبالا ، اما قائد القطاع فكان الشيخ حسن سلامة(٣٩) .

ولكي تكتمل امامنا صورة الجهاد الذي حمل لواءه اهل يافا ، يجدر بنا ان نذكر ان هؤلاء المجاهدين قسموا على ١٣ قطاعا من قطاعات يافا ، ولم يكن اي قطاع يضم جماعة مكتملة التسليح فمثلا : كان حي الجبالية يدافع عنه خمسة وعشرون مقاتلا يقودهم عبد الباري الهيني ولم يكن معهم الا ١١ بندقية وثلاث رشاشات ، وكان حي جبل الريش يدافع عنه خمسة وعشرون مقاتلا يقودهم خميس ابو النيل واخوه حمدي ، ولم يكن معهم الا ١٠ بنادق وثلاثة رشاشات وكان حي ابو كبير يدافع عنه مائة مقاتل يقودهم الحاج عبدالله الناقة ولم يكن معهم الا ٢٠ بندقية وستة رشاشات ، وكان حي البصة يدافع عنه خمسة وعشرون مقاتلا يقودهم كاظم الحسيني ولم يكن معهم الا ١٢ بندقية ورشاشان ، وهكذا بقية الأحياء في يافا .

على ان هذا الضعف في التسليح لم يشن العرب في يافا عن التفكير في سد النقص لديهم ، فهم يعمدون الى صنع القنابل وتركيب الألغام ، ويقول مؤرخ معاصر « انهم صنعوا القنابل من اوعية ومواد كانت قبلا تستعمل لاطفاء الحريق ، ووضعوا في كل وعاء مقدارا يتراوح بين عشرة وعشرين كيلوجراما من المواد المتفجرة ، وكانت قوة الهدم فيها عظيمة جدا(٤٠) » .

وذاك شاب عربي يسمى « علي جبر » صنع الغاما صاروخية تعاون هو وشقيقاه محمود وذكريا على نسف سيارات اليهود ومصفحاتهم بها ، وكانت انبوبة البوتاجاز تنشر في شكل مدفع يطلق انبوبة اطفاء الحريق المليئة بالمتفجرات ، فكانت عامل هدم ورعب بين اليهود .

وكانت يافا محاصرة بالمستعمرات اليهودية من اغلب جهاتها(٤١) ، ومن جهة اخرى كانت جارتها تل ابيب التي يسكنها ٢٠٠ الف يهودي المحمية بمستعمرات اخرى تقف شوكة الى جانبها ، وكان جهاد يافا

(٣٨) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢١ كان البائع احد ضباط الجيش الاردني يسمى حكمت مهيبار .

(٣٩) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(٤٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٦ .

(٤١) كانت هذه المستعمرات هي : بتاح تكفا ، مكفا اسرائيل ، واغروبنك ، بيت

فيجان ، هاتيكفا وريشون لوتسيون .

بل ان طه الهاشمي رئيس تلك اللجنة يصرح « انه اجاب الشيخ حسن سلامة بان مهمته الدفاع فقط ريثما يتم حشد قوات الانقاذ » .

وكان على الهاشمي وهو العسكري الذي يهيمن على رئاسة اللجنة من الجامعة ان يدرك ان الدفاع القوي هو الذي ينقلب الى هجوم ، وان هذا الدفاع الذي يطعم بين الحين والآخر هو الذي ينقلب الى هجوم ، وان هذا الدفاع الذي يطعم بين الحين والآخر بسلاح هزيل وقواد ليسوا في مستوى الخطورة ، قد ينهار ، وحينئذ ينعدم الدفاع ويتقدم الاعداء محتلين ، فلا تقوى الجيوش في منتصف مايو (ايار) على الجهود الكبير الموزع ، وكان عليه وهو القائد الكبير ان يدرك بما جرب حتى ذلك التاريخ ان رؤساء الدول العربية ليسوا جادين كجماعة للحرب ، وان الخلاف بينهم كان واضحا .

ولو وضع الهاشمي امامه هذه الاعتبارات لاهتبل فرصة تصميم اهل يافا وقراها على القتال ، وامدهم بالسلاح الثقيل والمتوعين ، ليتمكنهم من ان يواصلوا جهدهم على نفس النسق الذي ساروا عليه ، فاتي ثماره (قبل ان يخضعوا للجنة) .

ويعطي احد القواد العرب صورة مذهلة عن نقص السلاح في ايدي مجاهدي يافا (٤٢) فيقرر انه كان في منطقة الجبالية ستة وثلاثون مقاتلا يعوزهم السلاح ، وكانت هذه المنطقة تضم جنودا يوغسلافيين مسلمين كانت معهم بنادقهم ، وفي منطقة ابوكبير كان يوجد اكثر من سبعين مقاتلا بدون سلاح ، وكانت هذه المنطقة تضم عددا من المجاهدين المصريين ، وفي منطقة تل الريش كان يوجد سبعة وثلاثون مجاهدا لا سلاح لديهم .

واذا كان القائد الجديد عادل نجم الدين قد سافر هو الآخر يطالب لجنة الجامعة بسلاح هام وعتاد ثقيل ، فانه عاد بخمسين بندقية انجليزية واربعة رشاشات . اعطيات قليلة ، ومساعدات واهنة هزيلة .

وجاء ايضا معه خمسة وسبعون مقاتلا من المتطوعين الحمويين المدربين في معسكر قطنا غير ان اهل يافا المجاهدين كانت نكبتهم مزدوجة بهؤلاء الحمويين الذين لم يملكوا في يافا الا ثلاثة ايام نهجوا خلالها البلدة ، واستولوا على ما وصلت اليه ايديهم ، وغادروا مواقعهم ، فهاجمها العدو ، لقد عاد هؤلاء الحمويون الى يافا تحت الحاح واقناع القائد عادل نجم الدين ، ولكن الذين

(٤٢) هو القائد الشهيد حسن سلامة وقد كان يسجل في دفتره احداث تلك الايام الخالدة وقد استقى المؤرخ عارف العارف بعض مادته التاريخية من هذا المرجع . انظر الفصل من تاريخ القدس ، ص ٢٤١ .

وبسالة شعبها محل استفراب للاعداء انفسهم ، قال مناحم بيغن قائد الارهابيين في منظمة الارغون في كتابه الثورة « ان تل ابيب قاست خلال تلك الفترة من يافا وطاة الضرب الشديد ، وقد سقط من سكان تل ابيب حوالي الف قتيل وجريح ، وكان القناصون العرب يرسلون الموت الى كل مكان ، حتى وصل رصاصهم الفتاك الى العمارة التي تعمل فيها بلدية تل ابيب » وان الالغام التي استعملها العرب دمرت احياء يهودية كاملة ، وان احياء اخرى اخليت يومئذ من سكانها فهامت آلاف العائلات على وجوهها في قلب المدينة ، وعاش آلاف آخرون في الملاجئ والاقبية شهورا طويلة » .

وادرك اهل يافا ان صنع الالغام ليس سهلا ، وان المواد الصالحة لصنعها ليست متوافرة فعمدوا هم ايضا الى دمشق حيث اللجنة العسكرية وعادوا بلا جدوى .

على انه في منتصف فبراير (شباط) ١٩٤٨ هبط يافا قائد عراقي موفد من اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية ويصحبه ثمانون متطوعا ومائة وخمسون بندقية المانية وتشيكية و ١٥٥٠٠ طلقة انجليزية و ١٥ الف تشيكية وطن متفجرات .

وصل القائد الى يافا فوجد نقصا كبيرا في عدد سلاحها وعتادها ، وقدم بذلك تقريرا ضافيا الى طه باشا الهاشمي والى اللجنة العسكرية مطالبا بسرعة امداد يافا ، وطالب لجنة دمشق ان تزيد وتقوي حامية يافا، فلم ينجح في طلبه الأول ، ولم ينجح في طلبه الثاني ، وغادر يافا بعد بضعة ايام من وصوله ، وعلى الرغم من انه كان على سمعة طيبة واخلاص كبير ، فانه لم يستطع ان يساهم في انجادهما ، ولم يشترك في امجادهما .

ووصل يافا المقدم عادل نجم الدين فتسلم قيادتها باسم اللجنة العسكرية ، وكان يرافقه الملازم اول شناوة عود ، والمرشح اسماعيل قاطع ، والملازم مهدي صالح ، والملازم محي الدين ، والملازم ابراهيم الاعظمي ، والرئيس عبد الجبار الشمي .

وكان نجم الدين يخضع لقيادة الشيخ حسن سلامة الثائر الذي تولى الدفاع عن قطاع يافا واللذ والرملة ، ويرسل هذا القائد يطلب من اللجنة العسكرية ان تكون حامية يافا في وضع مماثل لما عند اليهود في تل ابيب ، انه يطلب ٣٦٠٠ مقاتل للقطاع ، كان يريد منهم ١٥٠٠ ليافا و ٥٠٠ لسلمة و ٥٠ بيتا و ١١٠٠ للذ والرملة وتلقيلية وصرفند ، ولكن هذا الطلب الذي نادى به القائد الفلسطيني ذهب لدى اللجنة العسكرية مع الريح ،

يسلبون سكان يافا ويتعاونون على نهب المدينة لا يمكن ان يكونوا سندا لها ، ولا ان يبذلوا في سبيلها رصاصة ولا روحا ، ولهذا كانوا عوناً على يافا لا عوناً لها .

وبينما كان اهل يافا ينتظرون العون من لجنة جامعة الدول العربية ، ومن الضباط الذين ترسلهم اليها ، ثبت ان عددا كبيرا منهم كان شرا هادما ليافا ونضالها في ساعاتها الفاصلة ، وليس ادل على ذلك من الملازم عبد الجبار العشي العراقي الذي جعل مهمته بدلا من الجهاد مصادرة مؤن الأهلين ، ومصادرة سلاح المناضلين ، حتى ادانته محكمة عسكرية بالسجن خمس سنوات لمصادرته تلك الأسلحة وتركه القرى المجاورة من غير سلاح، ولتشجيعه الحمويين على مفادرة يافا في أخرج ظروفها ، ولم يثبت مع المجاهدين في ساحة الشرف والجهاد(٤٣) .

ولنحيط اكثر بما لاقى شعب فلسطين من هؤلاء الذين دخلوها منقذين فكانوا حربا عليها ، يجب ان نقرأ تقرير طه باشا الهاشمي المرفوع لجمعية انقاذ فلسطين ببغداد عام ١٩٤٩ والذي يقول فيه « ان محكمة قوة اليرموك حكمت على شناوا عود والمرشح اسماعيل قاطع اللذين جاءا مع عادل نجم الدين الى يافا بالسجن ثلاث سنوات لانصرافهما الى سلب المدنيين الفلسطينيين وزجهم في السجون وتعذيبهم وبيع الأسلحة بدلا من الدفاع عن المناطق المكلفين بها » .

وقبل ذلك كان تقرير الهاشمي في الشهر السابع من عام ١٩٤٨ يقول « ان الملازم مهدي صالح (وكان هو أيضا قد جاء يافا مع القائد نجم الدين) تصرف بالأسلحة تصرفا غير مشروع وانه باع في اسواق بيروت تلك الأسلحة مع الأسلحة التي غنمها المجاهدون من العدو وانه سجن شهرا وطرده من الخدمة (٤٤) » .

ماذا يمكن ان تخلف هذه المظاهر التي لاحظها اهل يافا في جمهرة كبيرة من المتطوعين ؟ انها بلا ريب خلفت الما واسفا ، وبذرت كرها وثقة مزعزة وحقدًا ، وبادل اولئك المتطوعون اهل يافا نفس الشعور ، فحل الكره محل الوثام ، والحقد محل التعاون ، وكانوا حربا وتشنيعا وتشهيرا ، واستفاد اليهود من وضع مريب متخاذل يعوزه السلاح وينقصه

(٤٣) تقرير طه الهاشمي رقم ١١٧ - ١٤ بتاريخ ٥ يناير ١٩٤٨ المقدم الى جمعية انقاذ فلسطين ببغداد .

(٤٤) المصدر السابق ، رقم ٥١٠٧ - ١٤ بتاريخ ٦ يوليو ١٩٤٨ .

المال ولا يمثله الا شعب اعزل وقلة طاهرة من المتطوعين .

وفي غمار هذا الجو المربك وعلى صدى نداءات اهل يافا الى اللجنة العسكرية بدمشق ، والى الملك عبد الله بعمان ، بدأ اليهود هجومهم الكبير ، لقد جاء اليهود في مائة سيارة خليطا من رجال الهاجانا والارجون(٤٥) ، وكانوا مزودين بمدافع الهاون والموترو والبرن والقنابل المختلفة ومدفع مضاد للدبابات .

واستقبلت يافا لهب النار القوية ، وكانت حامية يافا يومئذ ٢٧/٢٦ ابريل (نيسان) ١٩٤٨ مؤلفة من خمسمائة من رجال يافا وأربعين عراقيا و ٦٥ مسلما يوغسلافيا و ١٥٠ من المتطوعين يقودهم الملازم العراقي شناوا عود(٤٦) ، وثبت المجاهدون الذين خف سكان يافا لمساعدتهم وسط المعركة ، واستمر القتال ثلاثة ايام ، وكانت يافا مقطوعة الصلة بالقدس وبكل القرى المجاورة ، قال مناحم بيغن قائد منظمة الأريغون الارهابية في كتابه « الثورة » عن تلك المعركة :

« في الوقت الذي اندفعت فيه وحدتنا لاحتلال الاستحكامات الامامية للعدو ، لعل صوت مدفع رشاش ثقيل من طراز شفندا واخذ يحصد المهاجرين . يا الهي لقد تعلمنا من استحكامات المنشية في يافا ما تعلمته جميع الجيوش في الحرب العالمية الثانية في قتال الشوارع ، وهو انك لا تجد استحكاما حصينا افضل من اطلال البيوت الخربة المهدمة حول خطوط الجبهة ، وفي قلبها ، لقد كان العرب يتخذون من اطلال البيوت وخرائبها خطوط دفاع عن يافا ، وظهر لنا ان خطوط الدفاع في المنشية كانت عميقة جدا مزدوجة ومثلثة وخماسية ، ويظهر انها اقيمت على ايدي خبراء ، بحيث اذا استطعت الوصول الى الصف الاول منها تصب عليك الاجنحة والاستحكامات النار والكبريت .

لقد تخضبت الارض بالحجارة والاطلال بالدماء ، وفي غرفة المراقبة تهشم رأس « صدوك » برصاصة اخترقته ، واخذت فرقة اسعاف الميدان تنقل القتلى والجرحى ، لقد سقطوا بالمشرات ، وكانت الدماء تقطر من جراحاتهم ومن قلوبنا ايضا ، لقد فشل الهجوم الاول ، وارتدت عنه فلول وحدتنا ، ولم تستطع اختراق تحصينات العدو وتدمير عنق الزجاجاة

« في الوقت الذي اندفعت فيه وحدتنا لاحتلال الاستحكامات

(٤٥) يقودهم جدعون ومناحم بيغن وغاليلي باعوش وغيرهم من كبار نواد الارهاب فيهم .

(٤٦) راجع الصفحة السابقة من هذا الكتاب كيف ادين في محكمة عسكرية .



يهودي واحد يفادر يافا الى تل ابيب فيحميه اربعة من جنود بريطانيا

وهكذا تتدخل بريطانيا كلما حزب اليهود امر ، فتكون الهدنة في مراحل حرب فلسطين المتعاقبة هي النكبة بالنسبة للعرب ، ويرضى قائد المدفعية ويعود الى نابلس . لقد كان في الامكان انقاذ يافا لو استمرت المدفعية تساعد ، ولو لم يرضخ جيش الانقاذ لهدنة تقترحها بريطانيا بين خصمين متحاربين منذ ايام امام ابصارها ، وكانت قد قوت احدهما فحين غلب تدخلت بالحيلة لانقاذه .

وتجدد هجوم اليهود ، وكانت خسارتهم ٢٥٠ قتيل ، ولكنهم استطاعوا ان يحتلوا حي المنشية العربي ، وذبحوا كل سكانه ، لا يشفع عندهم كر السنين لدى الشيخ الواهن ولا بسمة البراءة لدى الطفل الصغير ، بل مثلوا بهم تمثيلا مرعبا مفرعا اليما .

لقد انسحب القائد المقاتل عادل نجم الدين وسحب معه ٣٠٠ مقاتل اخذهم بأسلحتهم وعتادهم ، سحبهم وسط المعركة الدامية ، لم يفكر في التاريخ ، ولم يرع سمعة الوطن المجاهد ، وخرج بمجرد وصول القائد الجديد (٤٨) .

وادرک القائد الجديد ثقل المهمة في مدينة هدمتها القنابل ، وازدحمت

ذي الشكل الهلالي ، وارتدنا على اعقابنا ، وانسحبنا عن الأرض التي خضبناها بدمائنا ، وكانت هجمات العرب المعاكسة عنيفة بحيث تداعت وحدتنا المقاتلة تحت وطأتها ، واضطرت الى الانسحاب .

وملأنا الفراغ بقوات جديدة من الاحتياطي وكررنا على العدو ، ولكنه هزمنا في الجولة الثانية كما هزمنا في الجولة الاولى ، لقد هاجمنا يافا بأفضل قواتنا واحسنها تدريبا ومرانا في القتال ، هاجمنا خمس مرات في يومين وليلتين ، وفي المرات الخمس رددنا على اعقابنا وحملنا من ميادين المعركة ابطالا اعزاء علينا ، حملناهم مخرجين بدمائهم ، وبلغ من صلابة حمايتنا ان فكرنا في العدول عن اقتحامها واصدرنا امرنا الى قواتنا الامامية بالانسحاب ، ولكنها لأول مرة في تاريخ الارغون خالفت الاوامر وبقيت تحارب (٤٧) .

وجمع اليهود كل قواتهم ، واستنفروا كل قادر على السلاح ، وهاجموا يافا من جديد ، واستمر القتال ليلة كاملة ، وفقد اليهود كثيرا من رجالهم ، واصبحت يافا مهددة بالسقوط ، ان الشائعات تنطلق بان مصر على وشك ان تنزل جنودها في يافا ، وان قائد يافا يواصل استنجاهه باللجنة في دمشق .

وكان القاوجي يمسك في شمال فلسطين ، ووسط محنة يافا الحقت به اللجنة قيادتها ، فاقال نجم الدين وولي قيادتها الرئيس ميشيل العيسى على فوج اجنادين ، وان يرافقه المقدم صالح مهدي صالح العاني بفصيل مدغمي واربع مصفحات ليعينه على دخول المدينة المحاصرة ، يقول هذا « امتطيت المصفحة وتقدمت ، وسار الفوج خلفي ، وما كدنا نصل الى نقطة تقع على مقربة من المستعمرة « نيترفي » في ضواحي يافا ، حتى اطلق اليهود علينا وابلا من رصاص رشاشات ومدافع الهاون ، وبدأت المدفعية التي ركزتها قبلا في مواضع مهمة تقصف المستعمرة التي انهار برجها على من فيه ، وتقدمنا بعد ذلك بالمصفحتين ، وفر اليهود تاركين قتلاهم وهناك تقدم فوج اجنادين ودخل يافا ، ولم اخسر غير شهيدين وستة جرحى ، وعدت الى قرية « يازور » حيث تركت مدافعنا وامرت بان تقصف تل ابيب ، فأرسلنا عليها ستة واربعين قذيفة واخذ اللهب والنيران تنتشر في أرجائها ، واستجار اليهود بالانجليز ، فتدخل هؤلاء ونادوا بهدنة بين المتحاربين » .

(٤٧) نكبة بيت القدس ، ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٤٨) القائد هو ميشيل العيسى .

بالمشردين الذين هدمت بيوتهم ، وظهر فيها الجياع الذين لم يجدوا خبزا ، وأبرق الى الفاوقجي قائده العام مستنجدا : « عادل يترك المدينة دون تسليم ويرفض التسليم ، الحامية انهارت ، وأسلحتها تبذرت ، المدينة والحامية في حالة فوضى تامة ، وموقف عادل من هذا سلبى بل ربما ارتاح اليه ، نهب الجنود متاجر متعددة ، لا تستطيع اية شخصية السيطرة على الموقف دون وجود جيش نظامي يدعمها ، ثمانون بالمئة من الاهلين رحلوا وسيل الرحيل متواصل بشكل محزن ، اللجنة القومية لا تستطيع مداومة اعمالها لانقطاع مواردها(٤٩) » .

وأبرق من جديد يقول : « عادل غادر المدينة مع جميع العراقيين واليوغسلافيين بحرا ، والمدينة تكاد تكون مقفرة من السكان بعد ترحيل اليوم ، مقدرة المدينة على تموين من تبقى من الحامية تتوقف غدا ، أصدر القائد البريطاني أمرا بوجوب إيقاف الضرب من الطرفين حتى منتصف الشهر الحالي، في حالة عدم امتثال اليهود للأمر ليس لدي ما يقف امامهم ، عدوى الفرار سرت لأجنادين ، انتظر تعليمات مستعجلة » .

وهكذا تدهورت الحالة في يافا ، دهورها جيش الانتقاذ وقواده ، وضعف الايمان في قلوب بعضهم ، لقد استنفد الشعب كل حيلة في القتال ، ثم رأى بأمر عينه القائد يسحب جنوده ، ويركب معهم البحر وسط قنابل اليهود وهجماتهم ، وماذا ينتظر من الرجال العزل والنساء المخدرات والاطفال الصغار بعد هذا . . . وبعد أن يروا امام اعينهم انسحاب حماتهم ، وهجوم الجنود المنقذين على المتاجر ينهبونها ، وفرارهم من حصون القتال وخنادقه .

أغلق اليافيون متاجرهم ، وكثر القتلى والجرحى ، وازدحمت المستشفيات ، وارتفعت الأسعار ، ووقع الشعب بين نار اليهود يصلها وهوان المتطوعين يسومونهم الخسف ، وضعف التسليح يرهقه في القتال ، وانعزلت يافا عن العالم ، وأبرق أهلها الى الملوك العرب والرؤساء ، وتلقوا جوابا واحدا من رئيس لبنان : « أن اربسح بواخر ستبحر الى يافا لنقل المرضى والجرحى » ولم تصل البواخر .

ونزح السكان الذين علموا بآبادة السكان في حي المنشية والتمثيل بهم ، نزحوا بعد أن نصحهم القائد العربي ميشيل العيسى وأخبرهم انه لا جدوى من البقاء ولا من الدفاع ، فالسلاح غير متوافر ولا كاف(٥٠) . ونهبت المخازن ، وارتبك الأمن العام ، يقول مؤرخ عربي : « انه عندئذ

تنفس سكان تل ابيب الصعداء ، وغادروا مخابثهم ، وانطلقوا في الشوارع يمرحون احراراً ، بعد أن قضوا في المخابث شهرًا طويلاً » .

وفي ١٣ مايو (ايار) ١٩٤٨ وقيل دخول الجيوش العربية بيومين ، اضطرت لجنة الطوارئ في المدينة أن توقع لليهود في مركز قيادة الهاجانا بتل ابيب الصك التالي :

« أحمد أبو لبن ، صلاح الناظر ، أمين اندراوس ، أحمد عبد الرحيم ، يشكلون لجنة الطوارئ في يافا ، وبما أنهم يقيمون فيها لادارة شؤون العرب في المنطقة المذكورة اعلاه ، وذلك بعد أن أعلنوا يافا مدينة غير محصنة ، ومن أجل المحافظة على السلام ، وعلى مصالح العرب في المنطقة المذكورة لذلك فانهم يصرحون ويؤكدون أن جميع العرب سينفذون جميع التعليمات التي أصدرها أو التي سيصدرها لهم قائد الهاجانا في تل ابيب ، وأي ضابط معين أو مفوض من قبله اليوم أو فيما بعد منفردين أو مجتمعين ، وكذلك فانهم يصرحون ويؤكدون أنهم قرأوا التعليمات الصادرة اليوم من قبل قائد الهاجانا في لواء تل ابيب الى العرب في المنطقة المذكورة ، وأنهم وقعوا على هذه الأوامر اشعاراً منهم بفهمها فهما تاماً ، وأنهم يتعهدون بتحمل المسؤولية التامة بتنفيذ هذه التعليمات تنفيذاً تاماً من قبل العرب ، ومن المفهوم أن الهاجانا تحترم دوماً ، وستحترم فيما بعد ميثاق جنيف وجميع شرائع وتقاليد الحرب الدولية ، واشعاراً بما تقدم قد وضعوا تواقيعهم في هذا اليوم الثالث عشر من شهر مايو (ايار) ١٩٤٨ على هذا الاتفاق في رئاسة الهاجانا في لواء تل ابيب(٥١) » .

وكانت تعليمات اليهود هي :

١ - ان كل طلقة نارية تطلق على اية منطقة يهودية او على أي عضو من أعضاء الهاجانا او اية مقاومة لهم ستعتبر سبباً كافياً لاطلاق النار على المذنب .

٢ - تسلم الاسلحة الى ممثلي الهاجانا وتخزن في المكان والزمان اللذين يحددان فيما بعد .

٣ - على كل من يعلم عن وجود الغام او متفجرات صغيرة او اية اشياء كهذه يجب أن يبلغ اقرب عضو من الهاجانا والا عوقب بشدة .

٤ - على جميع الذكور الموجودين في المنطقة أن يجتمعوا في المنطقة الواقعة بين شارع فيصل وعمر المختار وشارع الحلوة والبحر وكل من

(٥١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤٩) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٥٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٦٣ .

يوجد خارجها يعاقب بشدة . الى آخر الأوامر التي تنظم سلطة الاحتلال وتمكن العرب في ظاهرها من حياة هادئة .

وفي الرابع عشر من مايو (ايار) دخلت جيوش اليهود مدينة يافا العربية ، وتناست بنود الاتفاقية ، واعملت فيها يد السلب والنهب والقتل والقتل .

لقد خسر اليهود من جماعة الأرغون الف وتسعمائة وثلاثة وعشرين بين قتيل وجريح في يافا وقراها ، ولم تعلن خسائر الهاجانا والمدنيين اليهود .

اما العرب فقد كانت خسارتهم تناسب جهادهم البطولي فبلغت ٧٧٠٠ بين قتيل وجريح من الفلسطينيين والمتطوعين .

٥ - معركة حيفا :

كانت حيفا مستهدفة من اليهود ، يسكنونها ويتكاثرون فيها ، وتساهل لهم بريطانيا تلك الاراضي حواليها ، حتى كادوا منذ ايام السلم يحاصرونها ، وبلغ عدد سكانها خمسة وسبعين الف يهودي و ٦٢٥٠٠ عربي ، وحين اقر التقسيم في هيئة الامم نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ طالب رئيس اللجنة القومية رشيد الحاج ابراهيم بتأليف حكومة عربية ترعاها الهيئة العليا ، ومنها تستمد النفوذ ، ولكن الجامعة العربية عارضت هذا التدبير وشجته (٥٢) وقدر عدد المقاتلين اليهود فيها بخمسة الاف جندي مدرب ، وبينهم عديد من الضباط الروس (٥٣) والجميع مزود بالسلح الامريكسي والمصفحات الروسية ، اما العرب فقد انضوا تحت اللجنة القومية ، واخذوا كالعادة يبحثون عن السلاح الذي حرموا منه قبالا ، وقسموا حيفا الى مناطق دفاع عشر ، واشتروا بأموالهم بعض السلاح ، وامتدتهم اللجنة العسكرية بكميات من سلاح آخر ، وارسلت لهم ايضا الهيئة العربية العليا سلاحا من بيروت ، حتى ان رشيد الحاج ابراهيم تسلم ٨٩ بندقية فقط ، وارجع ١٦١ بندقية لأنها غير صالحة ، وكذلك كان كل سلاح يصل حيفا يتبين ان قسما منه فاسد ، لا يصلح للقتال (٥٤) .

لقد كان وضع حيفا لا يساعد على الدفاع ، فلقد ساعدت بريطانيا اليهود على تطويقها من جهاتها الاربع بالمستعمرات العديدة (٥٥) ، وكانت

(٥٢) المؤامرة الكبرى واغتيال فلسطين ، ص ٢٢٩ .

(٥٣) اللواء طه الهاشمي ، جريدة الحارس ، بغداد العدد ٢٧ في ٢٨ من مايو ١٩٥٣ .

(٥٤) نكية بيت القدس ، ج ١ ص ٢١١ .

(٥٥) المستعمرات هي ميشيك باجور ونيشر وعنتليت وكريات آمال ورامات يوحنا وكفار

حسيديم وباروس حنا وبنيامينا والخضيرة وزخرون يعقوب .

بطولة من شعبها ان يصمم على القتال لا سيما حين ادرك ان اللجنة العسكرية للجامعة بدمشق ليست في مستوى الاحداث وخطورتها ، ولو انسحب منها شعبها لما ناله لوم التاريخ ، وقد جربنا في الحروب كيف ينسحب المقاتلون استعدادا لجولة او بعدا عن المخاطر ، وفي الحرب العالمية الثانية رأينا كيف انسحب الحلفاء من اوربا ، انسحبوا من بعضها بعد قتال وانسحبوا من بعضها الآخر قبل ان تصلهم جيوش الالمان ، وفي تلك الحرب نفسها رأينا كيف قاتل الروس الالمان من شارع الى شارع في ستالينجراد ، وقبلها في مواقع الحدود ، ورأيناهم ايضا كيف انسحبوا من اماكن كثيرة قبل ان تصلهم جحافل هتلر المدمرة ، وفي ليبيا نفسها شاهدنا كيف انسحب الالمان امام الانجليز حتى احتل هؤلاء طبرق وبنغازي ، ثم انسحبوا من هذه الاخيرة دون قتال ، ولم يقف انسحابهم الا في طبرق حيث ادركوا انها منيعة الحصون ، طبيعية الميناء ، بل لقد عاصرنا كيف اضطر الرئيس جمال عبد الناصر الى اصدار الامر لجيشه بالانسحاب من سيناء وغزه حين ادرك ان خطة الانجليز والفرنسيين هي حصر الجيش بينهما وبين اسرائيل بعد نزولهما في قناة السويس ، ولكن اهل حيفا شدوا عن كل هذه القواعد التي سجلها التاريخ في السابق واللاحق ، لقد قرروا ان يقاتلوا دفاعا عن مدينتهم من شارع الى شارع ، وحين تعاونت بريطانيا مع الصهيونية علنا ، وخذلت العرب جهارا ، وازادت ان تفرض عليهم لليهود صك اذلال واستسلام رفضوا التوقيع وقاتلوا حتى النهاية ، وفي بداية ديسمبر (كانون الاول) بدا العرب يتحركون في حيفا ، وعمدوا الى مخازن اليهود فأحرقوها ، واطلقوا عليها رصاص الرشاشات ، ثم غمسوا قطع القماش في البترول ورموا بها كتل الاخشاب والمتاجر ، وفي العاشر منه بدأ قتال الشوارع في حيفا ، وابرق مراسل الاهرام يقول : « شهدت حيفا معركة حامية استعملت فيها كمية كبيرة جدا من الذخيرة ، وكانت لعلمة الرصاص تسمع في كل ركن وفي كل شارع ، وقد بدأت المعركة عندما قتل اليهودي جوزيف زليخ في سوق الشوام ، فهاجم اليهود بعد ساعة شابا عربيا في شارع ستانتون ، واشهروا المسدسات عليه واخطفوه الى جهة مجهولة ، وشن اليهود هجوما على نفس الشارع استعملوا فيه الرصاص والقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة ، فتصدى لهم العرب وردوهم على اعقابهم ، وانتقلت المعركة من شارع ستانتون الى شارع هاشومير حيث كان اطلاق الرصاص اشبه بتساقط الامطار ، ثم تحولت المعركة الى حي وادي روشينا ، واستمرت المعركة التي ابتدأت في الحادي عشر صباحا الى الساعة الخامسة مساء .

وتستمر المعارك في نفس تلك الليلة ، وتنتشر الاهرام برقية جديدة لم

يجد مرسلها بدا من الاشادة بشجاعة العرب وبسالتهم وهو المدرك لقوة اليهود في تلك المدينة ولتصميم العرب على خوض المعركة الوطنية ويقول : « كانت مدينة حيفا خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية مسرحا لسلسلة من المعارك بين العرب واليهود في الشوارع والبيوت والازقة ، وقد سجل العرب ضروبا من الشجاعة والتفاني والتفوق (٥٦) ونشبت معركة اخرى في حيفا صرع فيها ثمانية من الهاجانا اليهودية ، وحاول اليهود القيام بعملية نسف خطيرة عندما القوا ثلاثة براميل محشوة بالمفرقات الفتاكة في شارع ستانتون (٥٧) .

وتشيد الجرائد بانباء القتال المستمر في حيفا ، ويصوب اليهود مدافع الهاون على الجماعات العربية التي كانت تفادر معمل التكرير فقتل بعضهم ؛ ولكن العرب يقابلون ذلك بهجوم عنيف على حي الهادار اليهودي فيصيبون عشرين يهوديا بين قتل وجريح (٥٨) .

وحينما كانت طلائع شهر مارس (آذار) ١٩٤٨ تأخذ مكانها من تاريخ فلسطين ، واحس اليهود بالتصميم القوي لشعب حيفا على القتال ، عمدوا الى ارباب يشيعون به الرعب بين السكان ، اذ فجروا سيارة شحن تحمل برملا به اربعمائة رطل من المواد الناسفة ، فجروها امام دار السلام العربية المؤلفة من عدة طوابق ، وهي الدار التابعة للهيئة العربية العليا ، فاهتزت المدينة للحادث المرعب ، وتحطمت دار السلام ومعها المتاجر المجاورة واصيب من شعب حيفا في هذا الحادث سبعة وستون شخصا كان قرابة ثلثهم شهداء (٥٩) .

ويشعر العرب ان الواجب يناديهم ليكيلوا لليهود بنفس الكيل ، فعمدوا الى نسف بناء شركة « سوليل بونيه » اليهودية ، وهو بناء يضم فرع الوكالة اليهودية ، فتحطم بكامله ، وكانت اصابات اليهود تقارب الخمسة والستين بين قتل وجريح (٦٠) ، وفي ذات اليوم فجر اليهود الفمامهم في شارع العراق ، فهدمت ثلاثة منازل عربية ، واصيب عدد من الدور بأضرار بالغة ، واصيب ثمانية وعشرون عربيا بين جريح وقتيل .

ويقول مؤرخ عربي بعد أن سجل كميات الاسلحة المرسله من اللجنة العسكرية بدمشق الى حيفا وهي كميات بعضها قديم ومجموعها لا يكفي :

- (٥٦) جريدة الاهرام ، اعداد : ١ و ١١ و ١٢ من ديسمبر ١٩٤٧ .
- (٥٧) جريدة الاهرام ٤ من يناير ١٩٤٨ .
- (٥٨) جريدة الاهرام ، ٤ من يناير ١٩٤٨ .
- (٥٩) جريدة الاهرام ٤ من مارس ١٩٤٨ .
- (٦٠) جريدة الاهرام ٢٠ من مارس ١٩٤٨ .

لقد بذل المجاهدون من ابناء حيفا والقرى المجاورة لها كل ما في وسعهم من جهد للتغلب على اعدائهم ، وكادوا ينجحون ، وقاتلوا اليهود خمسة اشهر كاملة من ٢ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٧ الى ٢٢ ابريل (نيسان) ١٩٤٨ فقتلوا من اليهود خلقا كثيرا ، ونسفوا معامل التكرير فحرموهم النفط والبنزين ، ودام القتال مرة بينهم وبين اليهود ستا وسبعين ساعة دون انقطاع من يوم الواحد والعشرين من ابريل (نيسان) الى الرابع والعشرين منه ، وكثيرا ما نشب القتال بين الفريقين في المنازل والازقة . وكانوا احيانا يشتبكون بالاسلحة الابيض وبالايدي والعصي من بيت الى بيت (٦١) .

وكان الجيش البريطاني في حيفا شرا خطيرا على شعبها ، فحين نسف العرب سيارة يهودية محملة الغاما في شارع هاشومير وتضررت دور يهودية عديدة ، تقدم الجيش البريطاني فحاصر المنطقة العربية في وادي النسناس ، واعمل يد الخراب في الدور والاشياء ، وسمح لجنده وضباطه بالسرقة والنهب وازال تلك الحواجز التي اقامها العرب في الشوارع ، وقبيل منتصف فبراير (شباط) حين احرق اليهود اربع سيارات عربية ، اخذ القائد العربي يونس نفاع يلاحقهم ، فاعترضه الجيش البريطاني واودعه السجن ، وحال بينه وبين هذه المطاردة ، ولم يطلق سراحه الا مساء ، عندما كان الفاعلون قد امنوا لآنفهم .

وفوجئ العرب بالجيش البريطاني في الرابع عشر من فبراير (شباط) يطوق جامع الاستقلال من البر والبحر مفتشا كل جزء ، وباحثا عن الاسلحة ولم ينته هذا الارهاب البريطاني الذي لم يوجه منه شيء الى اليهود في حيفا الا مساء ذلك اليوم .

وبينما كان محمد فخر الدين اورخان ، المجاهد التركي الذي تطوع للجهاد قادما من الاناضول يقود فريقا من الفدائيين معدا كمية من المتفجرات ، اذ اطلق عليه الجنود البريطانيون رصاصهم فاستشهد في اوائل مارس (آذار) (٦٢) .

ثم تلك المعركة الكبرى التي كانت طعنة اليمه في جانب المقاتلين فسي حيفا ، وهي المعركة التي حدثت بين قافلة السيارات العربية القادمة من بيروت وبين اليهود عند مستعمرة « موتسكين » فقد ساعدت بريطانيا اليهود في القضاء على تلك القافلة ، وقتل رجالها المهمين جدا ، اذ عرضت دبابة في وسط الطريق ، فحالت دون تقدم القافلة ، واطلقت النار على السيارة

(٦١) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ٢١٣ .

(٦٢) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢١٥ .

الاولى ، فاستشهد ضابط اردني كان يقودها قبل ان يتمكن من استعمال سلاحه ، واحاط اليهود بسيارة مملوءة بالمتفجرات ويقودها سرور برهم من ابناء فلسطين فلما ايقن انه لا نجاة له ، نسف سيارته فاستشهد وقتل عددا من اليهود الذين احاطوا به ، واستطاع اليهود والانجليز الذين تجمعوا وتعاونوا ان يقتلوا عددا مهما جدا من مجاهدي حيفا وضباطها وعلى رأسهم قائد حاميته الضابط الاردني الوطني محمد الحنيطي الذي اتفق مع لجنته على قيادة المعركة فيها ، وقد بلغ شهداء العرب في هذا اليوم اربعة عشر شهيدا .

اذا كان الانجليز قد جاءوا بدباباتهم يساعدون اليهود ، ويقتلون العرب في هذه المعركة فهم انما يتعمدون يدهم البيضاء على اليهود في ذلك اليوم ، فقد ذكر الشيخ محمد نمر الخطيب صاحب كتاب « من اثر النكبة » ان ضابطا انجليزيا متزوجا من يهودية كان في مركز الناقورة بحدود فلسطين لبنان ، وانه سمع محادثة تليفونية بين القائد الحنيطي وبين القيادة العربية بحيفا (٦٣) ، فلا يمكن ان يتصدى اليهود مرابطين في ذلك الموقع المهم الا بأخبار من عيونهم في مركز الحدود ، بالاضافة الى الجيش البريطاني الذي شاركهم في المعركة .

وانهارت المقاومة في حيفا ، فقد كان العرب القليلو السلاح ، المحاطون بالاعداء من كل جانب ، يقاتلون عدوين في حيفا ، قوين مسلحين ، اليهود والانجليز .

لقد جمع اليهود جنودهم وهاجموا المناطق العربية ، واعملوا سلاح الفتك والقتل في الجميع ، لا يفرقون بين ذكر وانثى ، ولا بين صغير وكبير واستبسل حماة حيفا في قتال جنوني ، لا امل لنصرهم فيه ، وامتدت معركة دامية رهيبه من صباح التاسع عشر من ابريل (نيسان) الى مساء الحادي والعشرين منه ، لا تهدأ نارها ، ولا تجف دماؤها ، والبريطانيون الذين ايقنوا ان كفة اليهود هي الراجحة يقفون في ثكناتهم لا يمانعون ولا يتدخلون ، وحينما اقبلت جموع عربية من القرى المجاورة تنجد المقاتلين العرب ، تحرك البريطانيون فحاولوا بينهم وبين دخول حيفا ، وكثر القتلى والجرحى من العرب ، وسلط اليهود مدافع الميدان الكبيرة ، وقاذفات الالغام والمدافع الصاروخية .

سلطت هذه كلها الى المناطق العربية في حيفا والمدافعين عنها ، ولم يلق العرب سلاحهم ، ولكنهم تقدموا الى القيادة البريطانية بطلب لا يستغرب بين الاعداء في ساحات الحروب ، طلب تحتمه الانسانية وتفرض الاستجابة

له ، ذلك هو نقل الجرحى العرب الى المستشفيات ، وكانوا كثرة كثيرة ، فرض الانجليز ذلك ، على ان الانجليز الذين شاركوا اليهود في معاركهم ضد العرب في حيفا ، والذين صدوا امدادات القرى العربية المجاورة من الوصول الى ميدان المعركة ، والذين رفضوا القيام باقل واجب انساني في نقل الجرحى الى المستشفيات على كثرتهم وخطورة نتائج تركهم ، هؤلاء الانجليز لم يكتفوا بذلك ، بل وقفوا في وجه المناضلين العرب يصادرون ما معهم من اسلحة ، ويتركونهم طعمة لجحافل اليهود وسلاحهم .

وبذلك تكون القوات العسكرية البريطانية قد اتمت في حيفا ذلك البرنامج الرهيب الذي ابتدأته بريطانيا لتهود فلسطين منذ دخول جيوشها عام ١٩١٧ ، ولم يعد هناك معنى للبقاء في حيفا بعد ان ملكت الاراضي المحيطة بها لليهود ، ومنعت السلاح والعتاد عن العرب ، واسهمت في اضعاف مقاتليهم وقتلهم ، وبذلك انسحبت من حيفا في الثالث والعشرين من ابريل (نيسان) ١٩٤٨ قبل ثلاثة وعشرين يوما من الموعد الذي حددته عاليا لانسحابها ، بل لقد كان المفهوم ان بريطانيا لا تنوي ترك حيفا لاسباب عسكرية وللرغبة في جعلها مرفقا بحريا .

واستنجد اهل حيفا بقناصل العرب ، وقيادة الجيش الاردني التي كانت ترابط على بعد اميال منهم ، ووقف الجميع يتفرجون على مجزرة اريق فيها الدم العربي مدرارا ، وكان الامر اكبر من وجودهم او انه لا يعينهم ، لا يختلف في ذلك قادة اللجنة العسكرية في دمشق ، وقادة السرية الاردنية المدربة المسلحة والتي تضم ٧٠٠ جندي .

لعل الوطنية لم تكن تنقص قوادهم قدر ما تنقصهم امكانية العمل والخضوع للقادة البريطانيين ، فقد ذكر مؤرخ عربي ان القائد الاردني هزه صوت السلاح يستعمل في عنف وشدة ضد قومه العرب في حيفا ، وعندما حاول التحرك لنجدتهم انذره القائد البريطاني باطلاق النار على جيشه لو فعل ذلك ، وتقدم مساعد الحاكم الانجليزي (٦٤) للمنطقة ، الحاكم الذي ينفذ شروط الانتداب وينوده والذي اعلنت دولته انها تتحمل مسؤولية الامن حتى منتصف مايو (ايار) ١٩٤٨ ، تقدم الى العرب يقول : « اذا كنتم تريدون تفادي قتل العرب في حيفا هذه الليلة ، عليكم الاتصال باليهود حالا والاتفاق معهم » وعندما جودل بمسئولته عن حفظ الامن حتى تاريخ انتهاء الانتداب ، كان جوابه : « تلك هي نصيحتي » .

ولم تنفع مراجعات العرب لحاكم اللواء ، ولا للقائد البريطاني ، فقد تنصل الجميع من اي اجراء ، واعلن القائد البريطاني « انه لن يضحي

(٦٤) هو المستر فاينتر برنج .

(٦٣) عارف العارف ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ص ٢١٦ .

بجنوده ولن يسمح للقوات العربية المسلحة ان تدخل المدينة لمساعدة السكان العرب ، وهو على استعداد فقط للتوسط بشريطة ان يقبل العرب الهدنة». وعلى اولئك الذين لم يحيطوا باحداث فلسطين ان يدركوا هذه الصورة المفصلة الواضحة عن موقف حيفا في الايام الاخيرة لعروبها ، وليجعلوا انفسهم قضاة قبل ان يصدروا احكامهم على جهاد عرب فلسطين ، وهم لو فعلوا ذلك لادركوا ان سكان تلك المنطقة قد بدلوا اقوى ما يبذله مثلهم ، ولقد استياسوا في القتال ، وجاهدوا صادقين ، لم يابهاوا لمنطقتهم المحاصرة ولا لقوات بريطانيا التي طالما اخضعت كثيرا من شعوب ، وعديدا من بلدان .

اما شروط اليهود التي قدمها القائد البريطاني الى المجموعة العربية ، فكان ملخصها كما يلي :

- ١ - ان تسلم خلال ثلاث ساعات الاسلحة الى الجيش البريطاني ، لتسلم الى جيش الهاجانا اليهودي في ١٥ مايو (ايار) .
- ٢ - ان يسلم الجنود الغربياء ليرحلوا بمعرفة اليهود ، وان يسلم النازيون الموجودون في صفوف العرب الى الجيش اليهودي .
- ٣ - اعلان منع التجول ٢٤ ساعة لعمليات التفتيش (٦٥) .

واخذ العرب يعقدون الاجتماعات ، ويتناقشون ، وكان اهل حيفا في حالة الغضب الشديد ، وهم برغم ضعفهم يرون في قبول هذه الشروط استسلاما مذلا تقدمه بريطانيا هدية سهلة في آخر ايامها الى اليهود الذين تبنتهم وقوتهم ، وتدارس القوم ، ماذا تكون النتائج لو قبلوا ولو رفضوا ؟ لو قبلوا ، فيسلمون مدينتهم العزيزة للغاصبين برضاهم ، ولن ينالهم بعد ذلك الا الفتك والهوان ، ولو رفضوا ، فسوف لا يقطعون جبل الود التاريخي مع حيفا العربية ، وليكن لسultan اليهود الفاشم ما يكون ، وقبيل الساعة السادسة والنصف من مساء ٢٢ ابريل (نيسان) ١٩٤٨ ، قال الجنرال البريطاني للمندوبين العرب في دار البلدية : « انه لن يكون مسئولا عن ذبح العرب اذا لم توقع شروط اليهود حتى السادسة والنصف واقبل المندوبون العرب وهم عزل الا من الايمان وحب الوطن ، وابلغوا في تصميم الى القائد البريطاني ومندوب الجيش اليهودي قرارهم النهائي وقالوا كلمة التاريخ « لن نسلم مدينتنا » .

ودخل اليهود حيفا مساء الخميس الثاني والعشرين من ابريل (نيسان) ١٩٤٨ ، تحميمهم قواتهم العديدة التي خلقتها بريطانيا وحمتها وساعدتها بأجنادها ودباباتها .

اما وكالات الانباء فقد وزعت برقياتها على الصحافة العالمية تصف تطور الاحداث في حيفا وتقول : « كانت السلطة البريطانية قد اصدرت اوامرها امس فجأة الى جنودها بالتخلي عن زمام السلطة في مدينة حيفا ، وكان اليهود على موعد مع السلطات البريطانية ، فبدأوا امس زحفهم على حيفا وهبطوا بجحافلهم من مستعمراتهم في جبل الكرمل تؤيده قسوات استدعيت على عجل من المستعمرات القريبة ، وشرعوا يحتلون احياء المدينة حيا حيا ، مقاتلين العرب الذين تصدوا لهم لوقف زحفهم المفاجيء السريع ، ومع ذلك فان العرب على قلة عددهم لم يقابلوا الزحف اليهودي على حيفا مكتوفي الايدي ، بل تصدوا لقوات الهاجانا ، واشتبكوا معها في قتال مر ، ولا سيما حول جبل الكرمل وعند محطة السكك الحديدية التي حاول اليهود عبثا انتزاعها من قبضة العرب (٦٦) . . .

واذاعت روتر بعد ذلك برقية تقول فيها : « ان خطوط الدفاع العربية في مدينة حيفا قد انهارت تحت وطأة مدفعية اليهود من طراز مورتر والمدافع الرشاشة التي اصلت المدينة نارا حامية ، وقيل ان العرب تكبدوا خسائر فادحة عندما حاولوا صد الهجوم اليهودي الذي بلغ ذروته (٦٧) .

يحصي المؤرخون خسائر المارك الاخيرة في حيفا بـ ٦٥٠ عربي بين جريح وقتيل ، وبلغ القتلى اليهود ٣٦٣ قتيلًا .

وجريا على عادة اليهود اعملوا في السكان العرب سلاح الفتك والابادة فقتلوا ومثلوا وسرقوا ونهبوا كل ما حوته المنازل العربية من مال ومتاع ، والقوا بالقتلى امام النسوة والاطفال ، وادخلوا الدواب الى مساجد المسلمين يتخذونها كاصطبلات لينجسوها ، وهدموا مقابر المسلمين والمسيحيين واخذوا معالمها من المرمر لمنازلهم وبنائاتهم ، ومنذ ٢٢ ابريل (نيسان) عام ١٩٤٨ ، والصهيونية العالمية تتحكم في ثغر حيفا التاريخي العربي ، وقسم من شعبها الذي استطاع الهجرة الى خارج الحدود يرنو بأبصاره اليها ، ويتذكر ابطاله الذين رفضوا توقيع صك الاستسلام برغم التهديد والابادة .

٦ - صفد العربية تلحق بحيفا :

كانت المارك في صفد وحولها مستمرة ككل مدن فلسطين وقراها ، وكان مجموع سلاح العرب منذ بدء القتال حتى نهايته وبما ارسلت لجنة

(٦٦) جريدة الاهرام ٢٢ من ابريل ١٩٤٨ .

(٦٧) جريدة الاهرام ٢٢ من ابريل ١٩٤٨ .

دمشق مضافا الى ما تمكن اهل صفد من شرائه ، لا يزيد عن اربعمائة بندقية بعضها فرنسي وبعضها انجليزي ، وكان اديب الشيشكلي هو قائد القطاع الذي يضم صفد ، وانسحب الانجليز من صفد المدينة التاريخية التي تضم حوالي ١٢ الف وخسمائة عربي ، انسحبوا منها في السادس عشر من ابريل (نيسان) ١٩٤٨ ، ودخل العرب المدينة فأحتلوا كثيرا من جوانبها ، وكانوا حوالي ستمائة مقاتل منهم قرابة اربعمائة وسبعين من الفلسطينيين ومائة وثلاثين من جيش الانتقاذ (٦٨) .

تمكن اليهود عندما احتلوا القرية العربية المهمة ، وبينما يستمر القتال بين الفريقين دون انقطاع ، يتلقى اليهود في يومي ٥ ، ٦ مايو (ايار) نجدات عسكرية في ١٧٢ سيارة عسكرية ، كان الصفديون يرون هذه النجدات فلم تكن ميادين القتال بعيدة عن مرأى العين ، بل هي شوارع وميادين ومناطق ، واخذ الشيشكلي يستنجد بقيادة جيش الانتقاذ وقائده فوزي الفاوقجي وكان الرد دائما « لا يوجد احتياطي » ، وانهارت معنويات الشعب ، واخذ جنود جيش الانتقاذ يتسللون هاربين ، فلم يبق الا القليل (٦٩) .

وسافر وفد من صفد لاقناع اللواء اسماعيل صفوت بحاجة صفد الى سلاح وعون ، ولكن اللقاء كان سيئا والعون كان عراقا ، وتمسك الصفديون بمواقفهم يدافعون ويستشهدون في سبيلها ، واخذ الشيشكلي يدك بمدافعه مواقع اليهود ، وتجددت الروح الوطنية ، واشترك عدد من العراقيين بمدافعهم ، فأسهموا بقدر كبير في تحطيم الحي اليهودي ، وجمع اليهود جحافلهم وهاجموا المواقع الصفدية في ثلاثة صفوف في اليوم الثامن من مايو (ايار) وكان اليهود يستعملون راجمات صنعوها باتقان مع قنابل الهاون ، وانكسر الهجوم اليهودي امام صلابه العرب المدافعين ، ولكن الدخائر العربية وهي المشكلة المتكررة بدأت تقل وتنقص (٧٠) .

يقول الكاتب اليهودي « ماير فيشر » : ان العرب استأنفوا قصف المدافع في يوم السبت ٩ والاحد ١٠ مايو (ايار) وكانت هذه المرة اشد فتكا واكثر احكاما ، وكانت فذائفهم تزرع الموت والدمار حيثما تساقطت وكادت صفد تسقط بيد العرب لولا ان ركضت نجدات كبيرة اخرى من قوات البالماخ يقودها قائدها الاعلى ، وكانت هذه القوات مسلحة بأسلحة

- ٦٨) نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ٢٠٠ .
- ٦٩) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٤ .
- ٧٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٠٥ .

كثيرة ووفيرة ، وكان بينها عدد غير قليل من مدافع « الفيات » وكان الجو مطرا والتحم الفريقان في كل مكان ، ولا سيما في عمارة البوليس من دار الى دار ، ومن غرفة الى غرفة ، وقد استعملوا السلاح الابيض عندما سكت صوت المدفع ونفدت ذخائر العرب ، فسقطت عمارة البوليس في ١١ مايو (ايار) .

على ان هذا القتال الذي يصلاه اهل صفد لم يشترك فيه ضباط وقادة جيش الانتقاذ فقد كان الشيشكلي قد قصد دمشق طلبا للسلاح منذ اليوم التاسع ، وكان ساري الفنيش الضابط الاردني الذي عينه الشيشكلي قائدا للحامية قد غادر هو ايضا صفد حاملا ثيابه غير ناو عودة .

على ان القائد الجديد اميل جميعان امر الجيش بالانسحاب بعد منتصف ليلة العاشر من مايو (ايار) وفي الثاني عشر منه كان اليهود قد احتلوا صفد

ودفع العرب قرابة مائة شهيد ، على حين فقد اليهود فيها ثمانماية وخمسين ، ولعل صفد ما كانت لتسقط بيد العدو لولا تلك الازمات التي قابلتها من نقص السلاح ، وتخلى اللجنة العسكرية عن عونها ، وروح الهزيمة التي كانت مسيطرة على قائدها الاردني ساري الفنيش الذي قال عنه الشيشكلي : انه كان يتغيب عند كل هجوم ، والذي غادر صفد والمعركة مستمرة حارقة ، وقضى ليلة انسحابه على بعد قريب من صفد يرى النار ويسمع طلقات المدافع ، ولولا تدخل الملك عبدالله لدى لجنة دمشق العسكرية ، لكانت محاكمة هذا الفنيش قد تمت حسب طلب الشيشكلي وتقديره ، يقول قائد عربي : « لقد حوصرت حامية صفد فدافعت ببطولة ، وفي منتصف ليل التاسع من مايو (ايار) ظن القائد الاردني ساري الفنيش ان الحامية الصغيرة قد استسلمت او ابيدت فانسحب تاركا المدينة تحت رحمة القدر واستمرت الحامية الصغيرة تدافع ببسالة اربعة ايام بعد انسحاب قيادتها حتى نفذت آخر طلقة لديها (٧١) » .

ومما يذكر عن اسباب سقوط صفد ، ان تلك المدينة المنيعه الحصينة كانت على جبل يزيد ارتفاعه على الف متر ، وكان اهالي صفد المعروفين بشدة بأسهم مصممين على الدفاع عن بلدهم ، فلما بدأت المناوشات في صفد ، حولها تطوع ضابط سوري يدعى احسان قيميلاز بقيادة حركات الجهاد في صفد ، وكان ضابطا باسلا قديرا مخلصا مؤمنا ، فاستطاع ان يكسب

- ٧١) كرامة فلسطين ، ص ٢٧ .
- وانظر ايضا : نكبة بيت المقدس ، ج ١ ص ٢٠٧ .

٨ - استشهاد حسن سلامة :

كان قائدا من قادة الجهاد المقدس ذلك الذي ضم كثيرا من شعب فلسطين ومقاتليه ، وكانت الهيئة العربية قد عينته لقيادة القطاع الاوسط الغربي ، وكان مقاتلا مخلصا خاض ثورات فلسطين المتعاقبة ، وكان له عامي ٣٦ و ١٩٣٨ مكان مهم بين المجاهدين ، وهو المتسبب في مصرع عدد كبير من الجنود البريطانيين حين نسف بهم القطار بين اللد وحيفا ، وقد صرع البريطانيون رفيقه في الحادث الشهيد محمد سمحان ، وناله من مطاردتهم جرح يسير ، وهاجر الى العراق واشترك كغيره من الفلسطينيين في الثورة العراقية التي قادها رشيد عالي الكيلاني وخرج منها الى سوريا واستمر باحثا عن ملجأ حتى وصل الى المانيا ، وهناك واصل تمارينه وتدريباته استعدادا منه لمستقبل لا ريب فيه يحتدم فيه الصراع بوطنه الحبيب فلسطين ، وفي عام ١٩٤٥ هبطت سرا طائرة المانية في سهل أريحا، وهبط منها خمسة رجال ثلاثة المان وعربيان ، كان أحدهما الرجل الشجاع حسن سلامة يرافقه ذو الكفل عبد اللطيف ، ولم ينج هؤلاء من مخابرات الانجليز ، ونجا حسن سلامة ومعه الماني واحد من الاعتقال حيث قصد سوريا حتى عاد الى وطنه محاربا ، وقائدا لقطاع يمتد من يافا الى وادي الصرار (٧٨) .

وتولى هذا القائد الدفاع عن يافا ، وكان شوكة خطيرة في جانب اليهود ، حتى اذا وصلها قواد ومتطوعو لجنة دمشق العسكرية غادرها الى القرى المحيطة ، ووصل بجنوده الفلسطينيين مرات عديدة الى تل ابيب ، ودخل مرة احدى المستعمرات اليهودية في ضواحي تل ابيب واضطر جيش الهاجانا اليهودي الى الجلاء عنها ، وترك خمسة وعشرين طفلا بلا راع ولا حام ، اطفال صفار لا تزيد اعمارهم عن العشر سنوات ، فأخذهم العرب وسلموهم الى الصليب الاحمر ، وحين نفذت ذخائر المقاتلين في تلك المنطقة ، واستطاع اليهود التغلب على جيش الانتقاذ التابع للجامعة استمر حسن سلامة يناضل في بقية القطاع حتى جرح في ٥ ابريل (نيسان) ١٩٤٨ ، وما كادت جراحه تندمل حتى واصل نضاله لا ينسى فيه اللد والرملة ولا رأس العين ، وفي هذه الاخيرة كان استشهاده .

وتلفت المناضلون الى ذويهم واسرهم ، فكانت نكبة اخرى ، لقد كان الجوع يفتك بالاطفال والنساء ، والجوع غول لا يرحم ، بل لقد عمد اليهود الى بث مكروب التيفويد في المياه فانتسح خرق المتاعب على العرب ، ان المرضى يطلبون علاجا ، وان الاصحاء يطلبون حقنا للوقاية وان الجميع لم يجد ماء للشرب والاستعمال .

وسقطت عكا تحت سناك اليهود في السادس عشر من مايو (ايار) ١٩٤٨ بعد يوم من زحف الجيوش العربية السبعة على فلسطين ، وبعد سبعة اشهر من ثورة الفلسطينيين العارمة نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ الى مايو (ايار) ١٩٤٨ ، واستحل اليهود القتل في شعبها المجاهد ، بينما اقاموا نصبا عند مدخلها ذكرى ٧٥ قتيلا من ابطالهم قتلوا امام اسوار عكا (٧٦) .

وواصل اليهود زحفهم على قرى عكا امام مقاومة سكانها ، فأحتلوا البروة ، ثم اتجهوا الى قرية « شعب » فقاد شيخها المقاومة الاخيرة ضد اليهود ، وتنادى بالنجدة من القرى الصغيرة المحيطة ، فجاء هؤلاء على النداء، وقاتلوا اليهود فهزمهم واسترجعوا قرية « البروة » التي كان اليهود قد احتلوا من ايام .

ويقول مؤرخ عربي سجل هذه الاحداث يوما بيوم : ان العكاويين تمقبوا اليهود يومها حتى بئر العياضية في ضواحي عكا وأملوا يومها ان يستردوا عكا نفسها ، وهنا تحرك جيش الانتقاذ ، وجاء قائده القاوجي الى المناضليين الذين سبق ان استنجد به شيخهم ابو اسعاف شيخ قرية « شعب » فتجاهله ونشب خلاف خطير بين قائد يريد وحده ان يكون كل شيء في الميدان، ومجاهدين يدركون ان الحرب معركة وفداء ، فانسحب القاوجي بعد ان تسبب في اقصاء ابو اسعاف والحسيني الضابط السوري الذي حاول ان يديم المقاومة في حيفا ولم يبق القاوجي ولا جيشه في ذلك المكان الا ليلة واحدة ، وهاجم اليهود القرى فأحتلوا (٧٧) .

ان اليهود لم يستطيعوا طي القرى العربية الا خلال ثلاثين يوما من سقوط عكا وعيون أهلها العزل ترتفع مترقبة الجيوش السبعة ، وبسقوط عكا وقراها تم انسحاب القاوجي وجيشه الى ما وراء الحدود يحمل مدافع ميدان لم تشارك في مساعدة اهل القرى الذين قاتلوا بسلاحهم العادي وبدلوا شهداء كثيرين .

(٧٨) المصدر السابق ، ج ١٩٣ ص ٥١٩

(٧٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٢٥ .

(٧٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٢٦ .

بين الفريقين حول النبع معارك مريرة ابلى فيها كل منهما بلاء حسنا واستمات اليهود في سبيله ، وكادوا ينجحون ، لا بل تغلبوا على حاميتها واخرجوها منه واحتلوا رأس العين في ٣١ مايو (ايار) ١٩٤٨ ولكنهم لم يبقوا هناك سوى ليلة واحدة ، اذ ما كاد الخبر ينتشر في القرى العربية المجاورة حتى راح المناضلون من كل صوب يزحفون ، وكان على رأسهم قائد القطاع الاوسط الغربي الشيخ حسن سلامة ، وفي طريقه اليها استنجد بالمناضلين من ابناء دير طريف وبيت نبالا والقرى الاخرى المجاورة لها ، وما ان وصل هؤلاء الى الميدان حتى انضموا الى اخوانهم الذين كانوا هناك وراح الجميع يعملون يدا واحدة على اخراج اليهود ، وكان الفجر قد اطل (٣١ مايو (ايار) سنة ١٩٤٨) ووقعت بين الفريقين معركة دامية ، جرح فيها القائد اثر شظية في رثته اليسرى ، فنقل على الفور الى مستشفى الميدان ، وازداد المناضلون حماسا فراحوا يقاتلون الاعداء بقلوب ملؤها الايمان ، وعند الضحى كان لواء النصر معقودا للعرب ، فطردوا اليهود واستردوا العين (٧٩) .

وبعد ان انتصر ابناء فلسطين في طرد اليهود من رأس العين والاحتفاظ بها ودّع القائد الجريح جنوده ، وذهب شهيدا الى الله ، وترك النبع الذي سال دمه في سبيله امانة لدى احبابه من شعب فلسطين (٨٠) .

وبينما المناضلون الفلسطينيون ينظمون انفسهم عند رأس العين التي استردوها ، وصلت اليهم في اول يوليو (تموز) سرية عراقية ، فعدل اليهود عن مواصلة الهجوم ، وحطت السرية رحالها واخذت تحصن مواقعها حتى اذا بلغها نبأ تخلي جيش الاردن الذي يقوده جلوب الانجليزي عن مدينتي اللد والرملة ، تخلت هي ايضا عن رأس العين فاحتلها اليهود ولم يعد بإمكان المناضلين الفلسطينيين مواصلة الدفاع عنها بعد ان تولى المهمة جيش العراق ثم سلمها لليهود ايضا جيش العراق عام ١٩٤٨ .

٩ - الانجليز يرجعون كفة اليهود عسكريا عند انسحابهم :

كان الانجليز قد اتبعوا خطة عسكرية تنطوي على الغدر بالعرب وتمكين العصابات الصهيونية من السيطرة على أكبر قدر ممكن من رقعة البلاد ، فقد بدأوا بالجلاء عن تل ابيب والمناطق اليهودية والمناطق

(٧٩) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٥١٨ - ٥١٩ .
(٨٠) زوت اسرته الصابرة المهاجرة في القاهرة وتكون من زوجته وابنته وابنه وقد بهرتني روعة العزم وقوة النجاة في هذه الاسرة الكريمة .



الشهيد حسن سلامة

قائد القسم الغربي من القطاع الاوسط . تراه في الصورة وهو يبحث مع مساعديه الخطة التي رسمها لاسترداد رأس العين . وما كادت رأس العين تسترد في ٢١ ايار ١٩٤٨ حتى اسلم الروح .

وكانت رأس العين نبعا مائيا يروي مدينة القدس ، حرص العرب على احتلاله والاحتفاظ به منذ بدأ القتال بعد قرار التقسيم ، وكان لاحتفاظهم به اثر خطير على اليهود في القدس فقد عطشوا واضطروا الى الحد من استعمال المياه وتوزيعها مقتصرة . وامام غول العطش في القدس ، حاول اليهود كثيرا أن يستولوا على ذلك النبع المهم ، ومنذ صدور قرار التقسيم والمعارك تدور وتهدأ لتبدأ من جديد ، والفلسطينيون يواصلون دفاعهم عن المكان ، صامدين امام عدو مدرب مسلح وقوي .

ولم تسقط رأس العين الا في العاشر من يونيو (حزيران) ١٩٤٨ حين كان القتال يحمل اسم الدول العربية وحين كانت فلسطين ودبعة لدى تلك الدول ، اما قبل ذلك فقد ثبت عرب فلسطين امام جحافل اليهود المصممة على تأمين المياه من رأس النبع .

ولنسمع ما يقرره المؤرخ عارف العارف حول هذا الموضوع : ان المعارك لم تنقطع بين اليهود والمناضلين من عرب فلسطين في الايام التي سبقت مجيء الجيش العراقي الى ذلك القطاع ، وكان اشدها تلك المعارك التي وقعت في الايام الثلاثة الاخيرة من شهر مايو (ايار) ١٩٤٨ ، فقد قامت

لنفهم ... ولنعتبر

« ان قرار مجلس الامن الذي فرض الهدنة الاولى هو وحده الذي خلص اليهود وحال دون سحقهم على ايدي الجيوش العربية »
وكيل القنصل الاميري بالقدس ١٩٤٨

« ان قصف الجيش العربي لاجياء القدس بمدافعه الثقيلة ، جعل الشعب اليهودي يتظاهر طالبا للسلام ، ولكني اعلنت الاحكام العرفية ومنعت التجول ووضعت الشبان بالخطوط الامامية ، وكانت الدوائر الصهيونية تعمل لعقد هدنة ، حيث جئنا بالطعام والسلاح والمحاربين من الخارج »
الارهابي مناحم بيغن زعيم عصاية زفاي ليومي

« لقد وافق اعضاء اللجنة السياسية بالجامعة على الهدنة بدون قيد او شرط ، وهي اكبر خطيئة في تاريخ الحروب بالشرق العربي ، حيث فك حصار القدس واتقد مائة الف يهودي كانوا على وشك التسليم .
ولقد كان ابعاد الفلسطينيين عن المعركة وحل فرقهم العسكرية الشغل الشاغل لقيادة الجنرال جلوب »

القائد عبدالله التل

لكن قومي وان كانوا ذوي عسدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم اهل الظلم مفسرة ومن اساءة اهل السوء احسانا
فليت لي بهم قوم اذا ركبوا شنوا الاغارة فرسانا ووحداننا
الشاعر الجاهلي فريش بن انيف

« يا شعب فلسطين لقد احتملت متاعب الفارات وضحاياها ، واذاعات العدو ومنشوراته ، وكنتم رابطي الجأش ، ثابتي العزيمة ، بالرغم مما لاقيتم من خسائر ، اني اهنئكم بهذا الايمان وهذه العزيمة الصادقة »
اللواء الركن فؤاد صادق قائد القوات المصرية بفلسطين

« حاصرها واضرب ذكورها بحد السيف ، واما النساء والاطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتضمنها لنفسك ، هكذا في المدن البعيدة عنك جدا

القريبة من تجمعات اليهود ، حتى تستطيع العصابات الصهيونية من مباشرة الحكم في هذه المناطق ، والاستيلاء على المنشآت العسكرية مثل المطارات ومستودعات الذخيرة والمسكرات وغيرها ، وكانت تسلم اجهزة الحكم الى مندوبين من قبل الوكالة اليهودية وفي نفس الوقت ظل الانجليز محتلين المناطق العربية يحكمونها حكما عسكريا صارما مباشرا الى آخر لحظة من ايام الانتداب ، ويمنعون تسليح العرب وتموينهم ويصادرون الاسلحة التي كانت ترسل اليهم ويقاومون دخول المتطوعين العرب الذين انسابوا من البلاد العربية لنصرة اخوانهم المجاهدين الفلسطينيين ، يضاف الى ذلك ان الانجليز باعوا معظم مخلفاتهم الحربية في فلسطين الى الوكالة اليهودية فقد ارسلت الاسلحة البريطانية التي كانت لدى قواتها في فلسطين الى ميناء حيفا تمهيدا لشحنها ، وكان هذا الاجراء يبدو سليما لولا انه اتضح انه في لحمته وسداه كان ينطوي على الخيانة في ابعث صورها ، فما تكاد تصل الاسلحة الى ميناء فلسطين الرئيسي حتى يتسلمها اليهود في المكان ذاته .

ويذكر القائد عبدالله التل الذي عاصر هذه الاحداث انواع الاسلحة ، وكان منها دبابات تشرشل الثقيلة ، ومدافع عيار ستة اربطال ومدافع (اليات) صاروخ ، ومدركات البوليس الفلسطيني ، ويقول هذا القائد العربي « ان جميع هذه الاسلحة ظهرت مع اليهود بعد جلاء الانجليز ، ولم يكن لديهم شيء منها قبل اليوم الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ (٨١) » .

ولقد ثبت ان الاسلحة الثقيلة التي ظهرت عند اليهود كان قد باعها الانجليز لهم كمخلفات حرب اذ قالت جريدة « مشمار » اليهودية ان الوكالة اليهودية اشترت مخلفات حربية من السلطات البريطانية بقيمة خمسة ملايين جنيه ومن جملة ذلك ٢٤ طائرة وعدد من السيارات والاجهزة الأخرى ، كما نشرت جريدة « يديعوت » اليهودية « ان عشرة اشخاص من اليهود اشترت من الجيش البريطاني الف سيارة نقل كبيرة وقد كان الطيارون اليهود من السلاح الجوي الملكي وعددهم خمسون نواة لتدريب اعداد كبيرة من اليهود (٨٢) » .

(٨١) كارثة فلسطين ، ص ٥٠ .

(٨٢) محمد عزة دروزة ، فلسطين وجهاد الفلسطينيين في معركة الحياة والموت ضد بريطانيا والصهيونية العالمية - الهيئة العربية العليا لفلسطين - القاهرة ١٩٥٩ .

التي ليست من مدن هؤلاء الامم ها هنا .. واما مدن هؤلاء الشعوب فلا تستبق منها نسمة واحدة »

توراة اليهود المحرفة

« اهلكوا ... احرقوا كل ما في المدينة (اريحا) من رجل وامرأة وشيخ وطفل ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيوف ، واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها ، انما الفضة والذهب فاجعلوها في خزانة بيت الرب »

التوراة .. في التوصية ليوشع بن نون

الفصل العاشر

الحرب الرسمية ونتائجها

١٩٤٨ - ١٩٤٩

١ - الجيوش العربية في المعركة :

اعلن اليهود قيام دولتهم اسرائيل في الخامس عشر من مايو (ايار) ١٩٤٨ ، وسرعان ما اعترف « ترومان » رئيس الولايات المتحدة بهذه الدولة التي اقيمت في الارض العربية، وبعيد مضي دقائق على هذا الاعلان ، واصبح لليهود كيان دولي مفروض ، اغتصبوا من اجله الارض وحاربوا في سبيله شعبا عربيا في عقر داره ، وبدت اخطارهم تقترب من جميع البلدان العربية المجاورة ، ويحسن بنا ان نتحدث في ايجاز عن اشتراك الجيوش العربية في معركة فلسطين ، وما سبق ذلك الاشتراك من آراء ، ومؤتمرات وتفاسيل .

حين تازمت الامور بعد قرار التقسيم نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ ، والت الدول العربية اجتماعاتها لتبحث الوضع، وتتخذ له قرارات مناسبة، وكانت الآراء عديدة موزعة ، كان اهل فلسطين وتمثلهم الهيئة العربية العليا تطالب بتسليح جموعهم وتدريبهم وامدادهم بالقوة والعون ، وتمكينهم من منازلة الاعداء ، وترى الهيئة ان شعب فلسطين اعرف بمواطنيه اقدمه واخبر بتضاريس ارضه ، وهو بعد ذلك سوف لا يكلف الا القليل ذلك انه يحارب في موطنه ويعود الى منزله ، وسوف يحارب بقوة وعزم فهو يدافع عن موقع رأسه وعن شرفه ودماره وكانت ترى ايضا ان تبقى الجيوش العربية مرابطة على حدود فلسطين من جهاتها جميعا تتقوى بالتدريب وتتكاثر حشدا واعدادا ، ففي وجودها ارهاب لليهود وتقوية لاهل فلسطين ، واذا قدر للآخرين انهزام تقدمت هذه الجيوش بعملها الفاصل وقيادتها الموحدة المخلصة .

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .

قرآن كريم

ومن قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها توجد من مسيرة اربعين عاما .

حديث شريف

لا تخونوا ، ولا تغفروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تدبحوا شاة ولا بقرة .

الخليفة ابو بكر الصديق يوصي جيش اسامة بن زيد

ورحب الناس بالاسلام حين راوا ان السلام وان العدل مفـزاه هي العروبة لفظ ان نطقـت بـهـه فالشرق والضاد والاسلام معناه

الشاعر العمري محمود غنيم